
كنعان مكية
هوامش على كتابِ
«الفِتْنَةِ»
منشورات الجمل
مكتبة
الفكر الجديد
كنعان مكية
هوامش على كتابِ
«الفِتْنَةِ»

كنعان مكية

هوامش على كتابِ «الفِتْنَةِ»





منشورات الجمل

كنعان مكية: هوامش على كتابِ «الفِتْنَة»


مكتبة
الفكر الجديد

كنعان مكية

هوامش على كتابِ
«الفِتْنَةِ»

منشورات الجمل

ولد كنعان مكية في بغداد، وهو الآن أستاذ يُدّرس في الجامعات الاميركية.
صدر له: جمهورية الخوف، ١٩٨٩؛ النصب، ١٩٩١؛ ما بعد الكلاسيكية الإسلامية: دراسة في فكر المعماري محمد مكية، ١٩٩١؛ الحرب التي لم تكتمل، ١٩٩٢؛ القسوة والصمت، ١٩٩٣؛ الصخرة: حكاية عن القدس في القرن الأول الهجري، ٢٠٠١؛ الفتنة، رواية، ٢٠١٦.

كنعان مكية: هوامش على كتابِ «الفِتْنَةِ»
الطبعة الأولى ٢٠١٦

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



١

شعوري بالذنب تجاه الأحداث المرعبة في العراق بعد ٢٠٠٣، وبالأخص حجم فشل النخبة السياسية التي جاهدتُ في إضفاء الشرعية العالمية ـ ولا أقول العراقية ـ عليها طيلة التسعينيات، فرضَ عليّ كتابة «**الفتنة**». هذه الرواية التي تتناول بالدرجة الأولى جذور فشل هذه النخبة في التعامل مع الفرصة التاريخية والتي لا تأتي إلا نادراً في تاريخ الشعوب.

تحاور الرواية بشكل خاص القيم التي سادت العمل السياسي العراقي بين السنوات ٢٠٠٣ و٢٠٠٦، وتطرح أسئلة حساسة حول خصال الذين انخرطوا بالعمل السياسي حينذاك. لم أذكر بالاسم الشخصيات الحقيقية المعنية في أحداث الكتاب لأنَّ هذا قد يبعد القارئ عن جوهره الأخلاقي، ولكي لا أكرر الخطأ الذي وقعت فيه عند كتابتي «**القسوة والصمت**» (١٩٩٣)، والذي دونتُ فيه بالتفصيل وبالأسماء من قال ماذا، وكيف صبَّ كل هذا الكلام باتجاه



الدفاع عن موقف صدام حسين في احتلاله واغتصابه للكويت والصمت المتعمد على قسوة نظامه.

كانت الظروف استثنائية في ٢٠٠٣؛ واستمرت استثنائية بعد سقوط الطاغية، واليوم أصبحت استثنائية في كل المنطقة العربية وأينما تجيل النظر. من خصائص هذه «الاستثنائية» أنها تُلقي الضوء على ما يقوم به الرجال ـ وللأسف هم دائماً رجال ـ الناشطون في الحياة العامة للناس. في ظروف كهذه تنتقل الأنظار من القوى الكامنة التي تعمل في المجتمعات على مدى عقود وقرون من الزمن ـ والتي نعرفها من خلال عِلمي التاريخ والاجتماع ـ إلى الحاضر وإمكانيات المستقبل، ننتقل إلى عالم الخيارات والأفراد والشخصيات، وكيف ولماذا يلعبون على مسرح الحياة العامة. حينها تنتقل الأنظار إلى خصال، ونواقص، ونوايا هؤلاء اللاعبين. بكلام آخر ننتقل من عالم الموضوعيات إلى عالم الذات، الذي هو عالم الرواية.

ولكن «الفتنة» هي رواية سياسية. الافتراض الضمني لمعنى السياسة في الكتاب باختصار هو كالآتي: العمل بشتى الطرق والوسائل على مسرح الحياة العامة للبشر. في هذا العمل تكمن الحرية الشخصية للأفراد، ولا أقصد حرية القطيع أو الطائفة. فلا حرية ولا إرادة شخصية للقطيع. القطيع



نفسه لا يفكر بل يقاد من قبل أفراد لهم تلك الحرية وأمامهم شتى الخيارات. هذه الحرية، حرية الأفراد، هي منبع كل الحريات السياسية الأخرى، وفي نهاية المطاف، كلنا متأثرون بها، وكلنا مسؤولون أمامها، إذ لا نستطيع أن نعيش من دونها.

مفهوم السياسة، كما اعتدنا أن نفكر به في البلدان العربية، هو مؤامرات، واختلاس أموال، وخلايا حزبية، واجتماعات سرية والعمل الدؤوب دائماً وراء الكواليس للمصلحة الشخصية. السياسة بالمعنى الذي أقصده في هذه الرواية هي كل هذه الأشياء أيضاً من دون شك، ولكن مفهومها أكبر بكثير من هذا. السياسة هي روح المواطنة، مثلاً، التي نفتقدها؛ هي حب الوطن والمواطن الذي نحن كأفراد لا نرتبط به بصلة (لا دين ولا عقيدة ولا قبيلة ولا حتى علاقة قومية)؛ فقط الإيمان بوجود إنسان تربطني به فكرة مشتركة، فكرة العراق على سبيل المثال. هذه المواطنة بطبيعة الحال تفترض وجود الوطن، الذي يفترض بدوره وجود دولة، وسواء شئنا أم أبينا. فإن أفكارنا حول هذه الكلمات كلها مداخلات في عالم السياسة.

معنى المواطنة في نهاية المطاف هو التماهي مع هذه الدولة المفترض وجودها، والعكس غيابها. كلتا الحالتين،



التماهي أو عدم التماهي مع الوطن، هي أفعال سياسية بكل معنى الكلمة، ولكن كلتا الحالتين تفترض وجود دولة كما أشرتُ. ففي عالمنا ـ ولا أقول في المجتمعات البدائية ـ لا نستطيع أن نعيش دون دول، مهما كانت متعجرفة. إسأل أي فلسطيني أو سوري أو عراقي اليوم، وسيفهم ماذا أقول. نفتقد روح المواطنة نحن العراقيين إذن لأننا تخلينا عن دولتنا وبالتالي عن وطننا.

«الفتنة» رواية سياسية بهذا المعنى، وموضوعها كيف تخلينا عن فكرة أساسية كالعراق أولاً، ومن ثم دولة العراق كما كنا نعرفها في القرن الذي مضى.

واضح من الكلام السابق أن كتاب «الفتنة» يوجه الأنظار دائماً على دور الأفكار في الحياة العامة، وسأضيف على فكرة المواطنة المعدومة عندنا، فكرةً على العكس من المواطنة نحتضنها ونسجد أمامها إلى أقصى الحدود، ألا وهي فكرة «المظلومية.» عكس مفهوم المواطنة. «المظلومية» تأثيرها سلبي على القابلية في ممارسة الحكم. مَن اعتبر نفسه «مظلوماً» على سبيل المثال، والأكثر من هذا اعتبر أن «مظلوميته» أزلية إلى الحد الذي تتحول إلى جزءٍ لا يتجزأ من هويته، يبدأ بافتقاد القابلية على التصرف في الحياة العامة دون الرضوخ إلى ما نسميه اليوم بالطائفية، وهذه الطائفية



كنمط حكم تُبنى دائماً وتشتق شرعيتها على أرضية المظلومية المزعومة. ومن هنا تنغلق كافة أبواب الحوار والتعاطي والتسامح، لتنفتح أبواب العنف والدمار.

الإشكالية المدمرة للنفوس وللأخلاق على المدى الطويل كون المظلومية تبقى في العقول حتى وإن سقطت كل أسباب الظلم السياسي بالمعنى المتعارف عليه لهذه الكلمة. هذه المحنة التي يعيشها اليوم العراق، ليست مقتصرة عليه بالرغم من أنها انطلقت من هناك على نحوٍ جديد بعد ٢٠٠٣. فالطائفية اجتاحت اليوم منطقة الشرق الأوسط بأكملها كما أشرت. الكل أصبح مظلوماً: الشيعي والسني والعربي والكردي والإيزيدي والعلوي والمسيحي والماروني والفلسطيني واليهودي والاسرائيلي. لم يبقَ أحد غير مظلوم في السجال السياسي الجديد في أرجاء الشرق الأوسط كافة، وبذلك ينتقل عالمنا يوماً بعد يوم من سيء إلى أسوأ.

الملاحظ في ظاهرة المظلومية أنه لا يوجد فرق بين من هو مظلوم حقاً، وبين الذي يتخيل أنه مظلوم، وبين من كان مظلوماً في السابق (ولكنه ليس مظلوماً الآن)، وبين الذي لم يعرف المظلومية البتة في قرونٍ مضت ولكنه يرى نفسه مظلوماً أزلياً. وهكذا بدا الكل، دائماً وأبداً، مظلومين. مفهوم السياسة عند هؤلاء (وهم يمثلون الأكثرية الساحقة من



شعوب ولاعبي السياسة في الشرق الأوسط اليوم) ينحصر في المنافسة على مظلوميتهم: لماذا يعانى هو من الظلم أكثر من الآخر؟ وكيف أن هذه المظلومية يجب أن يتم تعويضها مادياً وسياسياً. في هكذا عالم نتحول كلنا إلى أبرياء (المظلوم دائماً بريء)، غير مسؤولين عن الظلام الدامس الذي يحَلِّقُ فوق رؤوسنا. وتتحول كل أنواع السياسة (وهذا ما تطرحه الرواية) إلى دسّ الفتنة.

كتبت سابقاً كثيراً عن الظلم، ولكن مضى أكثر من ربع قرن على ذلك. في حينها كان الظالم واضحاً للعيان: نظام البعث بقيادة صدام حسين، وكان عنوان الكتاب «**جمهورية الخوف**» (١٩٨٩). وتلته كتبٌ أخرى من بينها كتاب «**النصب**» (١٩٩١)، الذي كتبت فيه عن تواطؤ المثقفين العراقيين مع نظام البعث. تلاه كتاب «**القسوة والصمت**»، (١٩٩٣)، والذي عاد أيضاً إلى انتهاكات نظام البعث بما فيها القتل العشوائي والجماعي للشيعة والأكراد. ولكنه تطرق أيضاً إلى صمت المثقفين العرب بالأخص تجاه تلك الانتهاكات (أي الظلم) التي قامت بها ديكتاتوريات العالم العربي باسم «العروبة» أو أولوية «الصراع ضد إسرائيل والإمبريالية».

انتقدني الكثيرون في حينها متسائلين: لماذا لا يكتب عن مأساة فلسطين وشيطانية إسرائيل؟ وكيف يدافع مكية عن



حقوق هذه الدولة الكويتية المصطنعة؟ ولماذا يطالب بتشكيل «مؤسسة ذاكرة عراقية» مهتمة فقط بأسوأ ممارسات الدولة البعثية؟ من يريد أن يتذكر عمليات إبادة القرى الكردية في العراق أو سحق الشيعة بعد الانتفاضة وممارسات التعذيب في سجون صدام؟ أليست أصول اهتمامات كهذه صهيونية (هذا ما قيل لهوشيار زيباري في أول اجتماع للجامعة العربية بعد أن سُمِح له بالمشاركة كونه كردياً وليس عربياً)؟ من وراء هذا الكاتب، تساءل آخرون؟ ما نواياه المخبّأة؟ على رأس الذين انتقدوني على هذه الأسس أدوارد سعيد، الناقد الأدبي الراحل، برغم أنه يعرفني جيداً، حيث عملنا معاً طيلة السبعينيات في صفوف الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

في كتاب «القسوة والصمت» تطرقت أيضاً إلى موضوع كان ثانوياً في حينها ولكنه أصبح في الصدارة في كتاب «الفتنة» الجديد: بشاعة ما قام به بعض المنتفضين «المظلومين» خلال انتفاضة ١٩٩١ في صحن ضريح الإمام علي في النجف الأشرف وفي أماكن أخرى من جنوب العراق وكردستان. حينها، كتعليق على مستقبل العراق في ضوء هكذا تصرفات، كتبت جملاً كالآتية:

«وحدهم شيعة العراق، بحكم أعدادهم، لهم القدرة والزخم الاجتماعي لوقف صدام حسين من انتزاع النصر من



بين فكّي موته في شكل تصاعد العنف الطائفي والقومي الذي قد يحصل في السنوات القادمة بعد الإطاحة به. يتحمل إذن القادة الشيعة مسؤولية تاريخية لذلك المستقبل، مسؤولية أكبر مما تتحمله أية طائفة أو قومية أخرى في العراق».

سقط الطاغية، وسلَّمَ الأمريكان زمام الحكم إلى القادة الشيعة العرب، وقد لعبت كتبي ونشاطي السياسي دوراً في إقناعهم بذلك. ولهذا أشعر بالذنب اليوم. وللأسف أجد نفسي مضطراً مرةً أخرى أن أكتُبَ عن كيف تحقّقت أسوأ مخاوفي.

لهذا، ولأسباب أخرى، أخشى أن يساء فهم روايتي الجديدة، «الفتنة». أتوقع ردة فعل كتلك التي حصلت سابقاً لأسباب، ولكن هذه المرّة خاصة بهذا الكتاب، من بينها: عنوانه، مصادره، أسباب ظهوره بعد مرور عشر سنوات من الأحداث المروية فيه، مدى تطابق هذه الأحداث مع حقيقة ما حدث في العراق بين الأعوام من ٢٠٠٣ إلى ٢٠٠٦، اختياري لأسلوب الرواية على السرد الواقعي، ولماذا هذا التركيز على انتهاكات الشيعة دون المنظمات السنيّة المتطرفة، ولأسبابٍ أخرى يصعب عليّ حصرها، بل وحتى معرفتها اليوم.

«إنما الأعمال بالنيات» يقول المثل العربي المنسوب للرسول. ونيات الكاتب بصورةٍ عامة، حقاً هي أحد



الأساليب المهمة التي عن طريقها نتمكن من فهم وانتقاد بعض معاني العمل الفني أو الأدبي. لذلك سأتكلم قليلاً عن نيتي وراء كتاب «**الفتنة**»، وذلك لردعِ بعض الاتهامات قبل أن تُقذف نحوي، ولكنني أكتبها أيضاً مؤمناً أن إساءة الفهم لمشروع مثل هذا الكتاب لن يزول بمجرد أنني أوضحت بعض التفاصيل وبيّنتُ نوعية المصادر التي استندت عليها وحاولت المصارحة بالقدر الذي أعرفه عن نياتي كمؤلف. لابدّ إذن أن يُنتقد هكذا مشروع من باب النوايا، سيئةً اعتُبِرَت، أم حَسَنة، وهذا يعتمد على من أنت محسوب: الظالم أو المظلوم، على الرغم من أني لست بالواحد ولا الآخر.

وأخيراً، إن أسهمت تلك النوايا في فهم معاني الأشياء، فهي في الوقت نفسه لا تمتُّ بصلة في أهميّة وقيمة العمل الأدبي على المدى الطويل. أنا لا يمكنني القول أن هذا أو ذاك الكتاب جيد أو سيئ لمجرد أنني أحببت أو كرهتُ نوايا مؤلفه. موضوع القيمة لأي مشروع أدبي أو فكري لا بد وأن يُترك للقارئ وللزمن اللذين وحدهما سيقدران قيمة ما كتب عن حجم فشل النخبة الشيعية ولا أخلاقية السياسة التي مارسوها في العراق من أول يوم سقط فيه الطاغية وفور ما سلمتهم أمريكا مقاليد الحكم.



٢

قضيت معظم الوقت ما بين عام ٢٠٠٣ و ٢٠٠٦، وهي فترة أحداث الكتاب، في العراق. كانت سنوات بالغة الأهمية، غيرت مسار أمّة بأكملها ومهدت الطريق لثورات وتقلبات في عامّة المنطقة العربية.

مع مرور الزمن توقفت عن التساؤل ما إذا كان من الممكن تجنُّب بشاعة التداعيات التي حصلت بعد سقوط الطاغية والاحتلال الأمريكي للعراق. من غير شك، جاء الاحتلال من دون تخطيط مسبق، ومُورِسَ بعشوائية وتخبط مفرط. ومما زاد الأمر سوءاً كون الدولة التي حلَّ محلَّها الاحتلال قد تعفَّنت وتغيرت خلال التسعينيات، ولم تعد الدولة البعثية في ٢٠٠٣ نفس **«جمهورية الخوف»** التي وصفتها في كتابي في الثمانينيات، ولكن كل هذه الحجج لا تبرر مدى تدهور الأوضاع التي وصل اليها العراق بعد سقوط النظام.



كارثة العراق بعد ٢٠٠٣ أذهلتني: في سرعتها، في عواطفها المتفاقمة الصاعدة، في أحقادها الكامنة المنفجرة، في الأفكار الجديدة الغريبة التي لا تمتُّ للعقل بصلة والتي فجأةً امتلكت عقول الناس كالشياطين. والأهم من كل ذلك، ما شاهدته أثناء وجودي من التدمير الذاتي لفكرة العراق من قبل أبنائه، وكأن لا مكان للبلد الأم في مخيلتهم السياسية الجديدة. ذلك الدمار، الذي أخذ طابعاً نفسياً وأخلاقياً وسياسياً في آنٍ واحد، فرضَ عليّ أن أتساءل عن أصوله.

العراقيون، وليس الأمريكيون، هم المسؤولون الأساسيون عن التدهور غير الطبيعي الذي حصل للأوضاع بعد عام ٢٠٠٣، ليس فقط أولئك الذين عانوا خلال الحكم البعثي بين عامي ١٩٦٨ ـ ٢٠٠٣، ولكن بالأخص العراقيون الذين عادوا من الخارج، «على ظهر دبابات المحتل» كما يصفهم الراوي في القصة.

بالضرورة استرعى انتباهي مصير المجتمع ككل، أو كما أطلق عليه بعض شخصيات الرواية «بفكرة العراق»، فكرة كان من المتوقع أن تطرح للنقاش بعد سقوط النظام، ولكن سرعان ما رُمِيت في سلة المهملات بلمحة البصر عندما عيّن المحتلُ «مجلس الحكم.» لم يكن الأمريكيون من رمى بها،



بل العراقيون الذين سُلِمّوا السلطة، نواة النخبة الحاكمة الجديدة التي لا يزال أفرادها مسيطرين على سياسة العراق حتى وقتنا الحاضر.

أنا، كما الآخرون، كنا نعلم أن «العراق» كان فكرة لا بدَّ وأن يتم تحدّيها بعد ثلاثين عاماً من دكتاتورية لم تكن مطمئنة من الحدود التي رُسِمَت للعراق بعد العهد العثماني، والتي شنت حربين لتغييرها. أسئلةٌ كثيرة كان علينا طرحها: ما معنى كونك عراقياً بعد غياب الطاغية؟ من أنا؟ وما هويتي السياسية (لا أقول الدينية ولا القومية، بل السياسية بحتة، فإننا كلنا خليط من الهويات في آنٍ واحد)؟ هل كان من الممكن جمع الحشد لإعادة بناء هوية عراقية جديدة لا تقوم على الكلام المنمق مثل «مهد الحضارات» أو ما نخدع أنفسنا بتسميتها «أمجاد» الدولة العباسية؟ لا أحد يعلم. بات العراق وفكرة المواطنة في هكذا مكان «سؤالاً لنفسه» كما يقول عمّ الراوي في القصة.

مع ذلك، لم يتوقع أحد السرعة التي قامت بها نخبة السياسيين العراقيين العرب في تجاهل فكرة استغرق بناؤها قرناً كاملاً، والتي قضوا هم عقوداً في المعارضة ينادون بالدفاع عنها. عندما تُهملُ هكذا فكرة كبرى كالعراق، من المؤكد أن يتبعها البلد نفسه، كما هو الحال وأنا أكتب هذه



السطور. في هذا الكتاب ـ والذي بدأتُ كتابته سنوات قبل أن تحتل ما يسمّى «داعش» مناطق ومدناً كبيرة من أرض العراق ـ لا أحاول أن أبحثَ فيه عن الأسباب (والتي يصعب علينا معرفتها وستحتاج إلى الكثير من الدراسات) بل كيف حصل كل هذا التخلي وخاصةً بالنسبة لاهتماماتي هنا في الجوانب الإنسانية والخلقية لها. حتّى هذه، أعترفُ أني لم أُعطها كامل حقِّها في الكتاب. وأتوقع أنه مع الزمن سيكتبُ عددٌ لا يحصى من المؤلفات والمقالات عن الكارثة التي أوقعتها النخبة السياسية على العراق منذ ٢٠٠٣.

الأفكار بطبعها عامّة، على عكس البشر. يستحيل حلّ التناقض بين الاثنين ـ العام والخاص ـ كما يستحيل اليوم معرفة قدر مستقبل «العراق». حاولت تخيل الاثنين: الأفكار، والبشر الحاملين لتلك الأفكار، خلال تجارب شخصيات الرواية. وفي النهاية أنا لا أتقصد جدالاً أو طعناً موّجهاً على أشخاص، بل فحص ذاتي مُوجّه على نفسي بقدر ما هو مُوجّه إلى الآخرين. السؤال الذي يحوم فوق كل فصول الكتاب هو: كيف قُدِرَ لكل ما حصل أن يحصل بعد سقوط أشدّ وأقسى ديكتاتور عرفه التاريخ العربي الحديث؟

أبطال الرواية ليسوا حقيقيين: هم مركبون، وأحياناً مُبالغ بتركيبتهم، مجمعون كالفسيفساء من شخصيات حقيقية



مختلفة، بحثاً عن حقائق كامنة قد تضيء جوهر فشلنا، نحن العراقيين بعد ٢٠٠٣، وخصوصاً الشيعة منا والذين أنا أحدهم. كان الفشلُ ذريعاً وأودى بالبلد بكامله، وبالأخص بالطائفة الشيعية. عند كتابة هذه الرواية أردتُ أن أستغل المعلومات التي اكتسبتها من خلال دراسة الطغيان في فترة الحكم البعثي في العراق، لتخيل كيف بإمكان أُناس أذكياء ومثقفين بصورة عامة، أن يقودوا البلد إلى هكذا هاوية. وربما من خلال هذا الباب أتوصل إلى فهم أعمق لما هو مهم في الفترات التاريخية الحرجة التي تمر بها الأمم.

طلبَ أصدقاء وزملاء لي أن أكتب كتاباً مختلفاً. قالوا أنا مُدين لأولئك الذين تماشوا مع تبريراتي لقيام حرب ٢٠٠٣. كان عليّ أن أنتقد دعمي السابق للحرب، وعن عدم كتابتي مثلاً، عن الانتهاكات التي جرت في أبو غريب (وهو أمرٌ يخجلني إلى يومنا هذا). تساءلوا، هل يبرر تغيير النظام دفع كل هذا الثمن في الأرواح والدمار الذي حلّ بالبلد؟ لو استذكرتَ الماضي، قيل لي، هل كُنتَ ستقول الأشياء نفسها التي قلتها قبل ٢٠٠٣؟ ألستَ مُديناً بالاعتذار لعوائل كل الذين ماتوا؟ وربما أيضاً عن دعمي للنخبة السياسية التي أوصلتها الولايات المتحدة إلى الحكم وسلمتها فرصة ذهبية لبناء عراق جديد، لتجد أنهم يفضّلون إيران عليهم في كل



شيء؟ ثم هناك، بالطبع، ذلك الوهم الذي آمنتُ به في إمكانية بناء الديمقراطية في دولة انحدرت مباشرةً إلى أسوأ حرب أهلية يمكن تخيُّلها.

هذه أسئلة مشروعة يجب أن تُلقى، ليس فقط عليّ، وإنما على كل من دعم حرب ٢٠٠٣. ولكن هل هي أسباب كافية للكتابة؟ ربما، ولكن الذي أريد قوله أنها ليست موضوع هذا الكتاب.

الحقيقة يجب أن تقال: لسنوات لم يكن بمقدوري الكتابة، لأني لو قمت بذلك مباشرة لامتلأت صفحات الكتاب بالغضب والمرارة، في عملٍ سيكون مليئاً بالاتهامات والتمرُّغ بالذنب. وهذا ما لم أود فعله. لربما كان يصعب عليّ الكتابة حينها. لا أعلم. لقد تجنَّبتُ كلَّ الفرص المتاحة لي على التعليق أو الكتابة عن مراحل تدهور الوضع في العراق. ربما لقربي من الأحداث، أو لأنَّ جروحاً كثيرة مازالت في داخلي ولم تلتئم بعد، هي جروح ناتجة عن المحاولات الفاشلة لإنجاح الفرصة التي منحتها الولايات المتحدة بدوافعها الخاصة بعد ٢٠٠١/٩/١١، والمرتبطة بقراءتها لمصالحها، ولكن في الوقت نفسه منحت هذه الدوافع فرصةً للشعب العراقي (ما زلت أعتقد أن هذا هو ما كانت عليه



حرب ٢٠٠٣) الذي نحن العراقيين فشلنا لأبعد الحدود في استغلالها لمصلحة العراق.

في الدفاع عن نفسي، أريد أن أقول أني كنت على الدوام أعتقد أن الديمقراطية نتيجة ممكنة، وبالتأكيد مرغوبة، ولكنني، في أعماقي، لم أؤمن في أنها بالضرورة ستكون الطريق الذي سيسلكه العراق بعد صدام. العكس صحيح. كنت وما زلت أعتقد أن المسالك الممكنة بعد ٢٠٠٣ كانت متعددة من بينها الديمقراطية، ولكن كلها أحسن من بقاء الطاغية في الحكم. بالنسبة للمسلك الديمقراطي، كنت أتجنب الإجابة على السؤال قدر الإمكان، ولكن عندما دفعني بيل مويرز في برنامجه التلفزيوني «ناو» في شباط ٢٠٠٣ للاجابة على سؤاله عن إمكانية نجاح الديمقراطية في بلدٍ مثل العراق، قلت له أن أمل النجاح ضعيف جداً ـ التشاؤم والظلام الذي ساد كل كتبي السابقة أحسن دليل على ذلك. مع ذلك، قلتُ في البرنامج، مهما كانت نسبة النجاح قليلة، ما زالت الديمقراطية فكرة تستحق الدفاع عنها من وجهة نظر كل مواطن عراقي مؤمن بالليبرالية الديمقراطية (أنا لا أقول المنطق نفسه ينطبق من وجهة النظر الأمريكية حيث لا أعتقد أن بناء الديمقراطية كان هدفهم الأساسي للإطاحة بنظام صدام).



من حيث المبدأ، أهم التغيرات في عالم السياسة لا يمكن توقعها. هذه طبيعتها، أو يمكن القول هذه هي صلب معنى العمل السياسي بصورةٍ عامة: العمل باتجاه الأهداف غير المُتوقعة، وذلك لأن كل التغيرات والتقلبات الكبيرة (والديمقراطية هدفٌ من هذا النوع) تحدث على أبعد حدود ما هو متوقع ومعقول في حينها - إنها ليست نتيجة حتمية تنبع من القاسم المشترك لمجتمع مظلوم ومقموع كالمجتمع العراقي في الثلاثين سنة الماضية. لهذا السبب كان لا بد أن تكون نسبة نجاح الديمقراطية في العراق ضئيلة جداً.

على أيةِ حال، ليست الديمقراطية كهدف سياسي بنفس قدر الأهمية بالمقارنة مع هدف رفع الظلم والقمع عن المواطنين. هذا كان معنى وسبب كتابة «**القسوة والصمت**» الذي لم يفهمه النقاد العرب في حينها. كمبدأ معنوي أساسي في النشاط السياسي أوضحتُ مراراً في الكتاب أن رفع القسوةِ دائماً يجب أن يأتي بالأولوية، قبل أي هدفٍ سياسيٍّ آخر. هذا هو الفكر الحضاري الليبرالي السليم الذي ترجع أصوله إلى مفكرين أوروبيين من أمثال مونتانيه، وفولتير، وجون ستيورت ميل. هذا على أية حال هو أساس الفكر السياسي الذي أنا أمثله، والذي حاولت تطبيقه في نشاطي السياسي والأدبي. على هذا الأساس بالذات، أظلُ واقفاً إلى يومنا هذا مع دعمي السابق لحرب ٢٠٠٣.



ولكن الشيء المرعب حقيقةً هو أنّ إيقاف القمع الوحشي للنظام البعثي الذي على أساسه دعمت الحرب، لم يتوقف بعد ٢٠٠٣، بل عاد مجدداً ليصبح المظلوم ظالماً والظالم مظلوماً.

من ناحية المبدأ، هل كان من الممكن أن يحدث غير الذي حدث في العراق بعد ٢٠٠٣؟ على كل إنسانٍ شريف ومُحب للعراق أن يتفقد ضميره للإجابة على هذا السؤال. ومن ثم يتخذ موقفاً سياسياً من حرب ٢٠٠٣. في اعتقادي، الجواب هو نعم، لم يكن هناك أيّة حتمية لانزلاق العراق إلى هذا الحد من الوحشية. أمّا إذا كان الجواب كلا، فعلى ذلك الشخص أن يتساءل مع نفسه إن كانت آراؤه مبنية على نظرة جِدّاً متشائمة عن طبيعة الإنسان العراقي، نظرة فَصَّلها وحلَّلها صدام حسين في الجزء الثالث والأخير للرواية عندما كان يُلقي درساً في أصول حكم الشعب العراقي.

الأمل، كوقفة سياسية، والافتراض المسبق أن على كل ناشط سياسي أن ينطلق من أحسن ما في الطبيعة البشرية، كان دوماً نهجي في النشاط السياسي. وهكذا قيل عني من قبل الأصدقاء وحتى بعض الأعداء. «كنعان» قال أحدهم الذي كنت أحبه كثيراً، «يمثل انتصار الأمل على الواقع». وهذا صحيح، لكوني دائماً أرى ضرورة بناء الأفكار



والتحليلات السياسية على أحسن ما في الطبيعة البشرية، متغاضياً عن سيئاتهم، وكم من مرة أخطأت في اختيار أصدقائي للسبب نفسه. قبل، ولفترةٍ قصيرة بعد ٢٠٠٣، تجرأتُ وآمنتُ بأن ما لا يمكن تخيله قبل ٢٠٠٣ ـ الديمقراطية في العراق ـ كان ممكناً بعد ٢٠٠٣. في هذا أنا مُذنِب، وسأبقى هكذا مذنباً إلى نهاية حياتي.

ولكن، ومن المنطلق نفسه، أنا لست مذنباً أكثر من أولئك الشباب الشجعان الناشطين الذين خرجوا في تونس والقاهرة والبحرين ودمشق عام ٢٠١١، والذين أيضاً آمنوا بامكانية قيام أنظمة أكثر ديمقراطيةً من تلك التي عانوا منها لعقودٍ. خرجوا إلى الشوارع مُسالمين، حاملين آمالهم، ثم خسروا. الفرق الوحيد بيني وبينهم أن الكثير منهم بقوا في بلدانهم وضحّوا بحياتهم لما كانوا يؤمنون به، بينما أنا رجعتُ لأقيم مجدداً في أكبر ملجأ للعرب اليوم في العالم: بلدان الغرب وأمريكا. هذا فرقٌ كبير بكل تأكيد، ولكن ليس فرقاً سياسياً.

اثنان بقيا في العراق: صديقي عمّار الشابندر، الذي قُتل بسيارة مفخخة في اليوم الثاني من أيار ٢٠١٥، في حي الكرادة في بغداد. وصديقي الآخر مصطفى الكاظمي، الذي قام بغسل عمّار ودفنه في النجف، والذي كنت على الدوام



متيقناً بأني سأهدي كتاب «الفتنة» له. صحفيان بارعان، ولكن ما ميزهما هو إنسانيتهما، وشيء في الخلق الذي يصعب عليّ وصفه. في عملهما غطيا بشاعة الحروب وإساءة الإنسان لأخيه الإنسان، رأيا القسوةِ بالعين ولم يتخاذلا، وقاما بذلك يوماً بعد يوم، داخلين في أعماق ألم العراقيين رجالاً ونساءً (وحتى الأطفال في حالة عمّار)، بينما معظم الآخرين كانوا مهتمين فقط بمصالحهم.

الاثنان أيضاً، مثلي «عراقيون أجانب» المصطلح المكروه الذي أطلقته في كتاب «الفتنة» على جميع الذين عادوا من الخارج لبناء عراق الأحلام الذي لا يمت بصلة إلى عراق اليوم. كلاهما عاد من منفاه في السويد لخدمة الوطن. في غمرة الرسائل الإلكترونية التي دارت بين حفنة من الأصدقاء بعد صدمة مقتل عمار، نحن أصدقاءه ـ حسن، ورند، وأنا ـ قلقنا على صديقنا مصطفى، الذي ما زال في العراق، يتصارع مع الشياطين الجدد الذين أطلقهم حكامنا كبلاء على الناس. في كلمات توجع القلب، أصر حسن على مصطفى ليترك العراق. كنت أقولُ له الشيء نفسه لسنوات. ولكن مصطفى غير قادر على القيام بذلك. كنت أعلم ذلك. أعطى توسلاتنا أذناً طرشاء، لماذا؟ لأنّ مصطفى، كعمّار، من بين



القلائل الباقين الذين مازالوا يمنحون لكلمة «الوطني» التعبانة والمُستغَلة حدَّ الافلاس، صِدْقَ ما المفروض أن تعنيه.

لقد أثرتُ هذا الموضوع لأسباب تفوق علاقتي الشخصية لهذين الصديقين: النقد، من النوع الذي أحاول ممارسته في هذا الكتاب، لا يستحق اسمه ما لم ينبع من الحب. هذا ينطبق على الأصدقاء، كما ينطبق على المجموعة التي وُلِدتُ بينها، شيعة العراق. من يحقد، أو حتى لا يحب، لا يستطيع أن ينتقد بأمانة أو مصداقية.

نحن الناشطين العرب الذين اخترنا أن نعطي الأولوية لقضية قسوةِ أنظمتنا المستبدة وانتهاكها لأبسط الحقوق البشرية أو، بتعبيرٍ آخر، نحن الذين بدأنا بنقد أنفسنا (لا إسرائيل ولا أمريكا ولا إيران ولا الأكراد ولا سُنّة العراق) ثم تصرفنا بموجبها، وبالأخص أنا الذي كنت في طليعة من نادوا بالإطاحة بالدكتاتور خلال التسعينيات، أصبحنا مُلزَمين أمام كل العراقيين عن حجم الكارثة التي حلّت في العراق. في روايتي، مثلتُ الكارثة بالطريقة المشينة التي أُعدِمَ فيها صدام حسين عام ٢٠٠٦. أيقنتُ ذلك اليوم، أمسية ختام تلك المهزلة يوم السبت ٣٠ كانون الثاني، عندما كانت الأعداد المتراكمة من العراقيين المقتولين على أيدٍ عراقية أخرى منذ ٢٠٠٣ تناهزُ الذين قتلوا بالبشاعة نفسها في عهد صدام... في



ذلك اليوم أيقنتُ أن الآمال والأحلام كلها قد ماتت مع الطاغية.

أقولُ لك، قارئ هذه السطور، إننا مسؤولون أمام هذه الفظائع... مسؤولون تجاه القتلى من أمثال عمّار ومئات الآلاف مثله، مسؤولون تجاه الأحياء من أمثال مصطفى الذين ما زالوا يؤمنون ويرفضون مغادرة الصفوف الأمامية من الصراعات المستمرة لبناء عراقٍ أفضل. هذا الكتاب اللاذع في انتقاده للرجال الذين خلقوا السياسة التي أزهقت كل هذه الأرواح العراقية (ومعظمهم من المعارف والأصدقاء أيام «المعارضة» في التسعينيات). هو كل ما أستطيع القيام به لأُكفِّرَ به عن ذنوبي.




مكتبة
الفكر الجديد

٣

العراق مَهَّدَ الطريق لكل ما حدث من تقلبات في المنطقة العربية بعد ٢٠١١. سقوط أول طاغية في ٢٠٠٣ غيّر الأجواء والأحاسيس والأفكار، الواعية واللا واعية، بحيث أصبح من الممكن تخيل سقوط الآخرين في ٢٠١١. وعلى الطريق حدثت انتخابات حرة في مصر في عام ٢٠٠٥، وفلسطين، ونهض الشعب اللبناني ضد الاحتلال السوري إلى أن فُرِض على الجيش السوري الانسحاب في حدثٍ ليس له مثيل في تاريخ لبنان الحديث. هذه كلها سوابق لما سُمِيّ فيما بعد بالربيع العربي.

نعم، لم تدعم هذه الشعوب الحرب الأمريكية التي حرّرت الشعب العراقي من طغيان صدام حسين. ولكنها أُستوعِبّت بشكل عفوي، ويمكن القول لا عن وعي مسبق، الامكانيات الجديدة التي انفتحت أمامها عندما تغيرت الموازين والاعتبارات المقترنة مع أنظمة تحكمها أجهزة



مخابراتية وأشكال مختلفة من المؤسسات القمعية، أنظمة طال بقاؤها قبل انبثاق الربيع العربي بما يناهز النصف قرن.

في نهاية المطاف، الحدث الرئيسي لم يكن عراقياً، بل كان قضية كل العرب كما نراها تدور إلى يومنا هذا في البحرين، وسوريا، وليبيا، واليمن، وكما سنراها غداً في مناطقٍ ودولٍ عربية أخرى. مأساة ما حدث للربيع العربي، وبروز نوعٍ جديدٍ من الوحشية العربية على غرار «داعش» أو الدولة الإسلامية، لا يمكن وصفها بـ «انتكاسة» أو «أزمة» لأن هذا يقلل من حجم الفاجعة التي دخلنا فيها في الشرق الأوسط اليوم، بعد دحر كل تلك الآمال المرتبطة أساساً مع انبثاق روحِ جديدةٍ للمواطنة سُمِيّ بالربيع العربي.

علينا كعرب وكمسلمين وكمواطني هذه الدول التي فشلت في نهضتها هذه أن نعترف بأنّ الذي نشهده اليوم، ولحدٍ ما نتيجةَ هذا الفشل، هو تهشم حضاري بالكامل، لا أقل. ولا يمكن تأمل زواله في المستقبل القريب. لم يأتِ هذا التهشم فجأةً، وإنما له تاريخ طويل يناهز النصف قرن بدأ عندما تولدت أنظمة مستبدة بقيادة أمثال صدام حسين وحافظ الأسد ومعمر القذافي. وهذه في دورها وَلَدَت ناشطين ضد الاستبداد نفسه من أمثال عمّار ومصطفى وأبطال الأيام الأولى من الربيع العربي الذين كان همُّهم الوحيد التخلص من هكذا



أنظمة قمعية وبث روح وطنية جديدة. ولكن على الطريق، بين الواحدة والأخرى، خلال الثمانينيات والتسعينات، جاءت كل تلك الحروب والحروب الأهلية والانتفاضات، ومن ثم تنظيم القاعدة، وتنظيم حزب الله... حتى انتهينا اليوم إلى دولٍ على حافة الانهيار وتنظيمات باسم الإسلام تتشوق إلى القتل والدمار.

نعم، «داعش» قتلت عمّار، ولكن من يتحمل المسؤولية؟ القتل شيء، والمسؤولية شيءٌ آخر. ثم هناك مستويات وأشكال للمسؤولية. جيلي مثلاً، الجيل الذي تسيس على هزيمة حرب ١٩٦٧، والذي أهمَلَ الانتهاكات التي قام بها حكامنا في العراق وسوريا بعد ١٩٦٧ تحت غطاء شعارات طوبائية مثل «الوحدة العربية» أو «الثورة العالمية» أو «كل شيء من أجل المعركة» أضفينا شرعية على هذه الأنظمة. أكتب هذا وأنا واحدٌ من أولئك الذين حملوا هكذا شعارات في تلك الفترة. لذلك من الضرورة الاعتراف أن جيلنا مسؤول عمّا قامت بها هذه الأنظمة للمجتمع المدني في بلادنا في الثلاثين سنة التي مضت. ولكن كل هذا دخل التاريخ اليوم. السؤال الآن: من المسؤول عن كوارث العراق بعد ٢٠٠٣ وسوريا اليوم؟

اهتمامي في هذا الكتاب هو العراق، وأقولُ فيه أن عصابة



الثلاثة عشر هي المسؤولة، أو بالأحرى كافة الطبقة الحاكمة الجديدة في العراق التي بعد ٢٠٠٣خلقت السياسة التي على أساسها انبثقت وحشية «داعش» وأمثالها.

القصة كلها بدأت في العراق. ربما الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٣ ـ ١٩٨٩) كانت إشارة إنذار. لا أدري. ولكنني أعرف أن الطائفية العراقية أتت أكثر فتكاً. ولم تُخلق كأسلوب ممارسة للسياسة لمجرد أن الأمريكان تخلصوا من صدام في ٢٠٠٣. هذا النوع من التفكير يمثل قِمَةَ الغباء وله تاريخ بعثي طويل، بالرغم من أن كثيرين في المنطقة بما فيهم من شارك في الربيع العربي وناهض البعث ما زالوا يفكرون على هذا النحو. العفن يغور إلى أعمق من ذلك بكثير، إلى ما قبل دخول الأمريكان العراق بعقود من الزمن. من أجل كل العراقيين الذين ماتوا، كعمّار، والأحياء المستمرين في النضال كمصطفى، وجب عليّ أن أروي قصة فشلنا هذه في العراق، ولماذا نحن العرب والمسلمين والشيعة بالأخص نمتلك ذلك الفشل، وليس بعبع الغرب المتوحش.

العراق أيضاً هو أفضل مرآة يعكس كون الفشل هو من صنع عربيٍّ وإسلاميٍّ، وليس سُنّياً أو شيعياً فقط. الفشل ذريعٌ جداً، وجذوره متغلغلة في كل فجوات الثقافة العربية على مرِ العقود كما قلت. ليس من المعقول إذن وضع كل هذا في



خانة «صنع في أمريكا» ولكن ما زال عدد كثير من النساء والرجال الأذكياء مؤمنين بهذا التعليل، بعضهم قياديون حصلوا على السلطة بفعل جيوش غربية في ٢٠٠٣. عندما تناقشهم في هكذا موضوع، يُحدِّقون بك ويقولون: «داعش» خلقتها أمريكا أو إيران أو السعودية. حقاً في بعض الأحيان يؤمنون بذلك! ؟أنت تعرف أن اللاعقلانية قد تُوِّجَت عندما ترى الطائرات الحربية الأمريكية تقصف «داعش» في تكريت، والقادة الشيعة العراقيون، الذين كانوا سيقبعون ويتعفنون في سجون صدامٍ لولا الحرب الأمريكية التي أطاحت به، يفيدون بتصريحات رسمية يتهمون فيها أمريكا والسعودية بخلق «داعش».

انتصار اللاعقلانية السائدة اليوم في دول الشرق الأوسط، هو ليس حالة دائمة كُتِبَت على جيناتنا كثقافة وكعرب وكمسلمين. عمّار ومصطفى يعلمان ذلك. في إحدى الأيام، سيأتي جيل جديد من الناشطين الديمقراطيين، يمثلون نفس روح الذين سبقوهم في ٢٠٠٣ و٢٠١١، أناسٌ كعمّار ومصطفى وليس كعصابة الثلاثة عشر أو مجلس الحكم، جيل جديد سيحولُ الظلام إلى نور، وإلى بداية جديدة للعرب وللإسلام ليعودوا بنا إلى أحضان العالم المتحضر. أنا مؤمن بذلك، ولكن الدرب طويل.



شعوري في أواخر ٢٠٠٤ بأن العراق منزلق نحو حربٍ أهلية، كان نقطة تغيّر في حياتي. تحطم صرح آمالي التي تعلقتُ بها طيلة التسعينيات عندما كنت أحلم بانتقالٍ مختلف للعراق من الدكتاتورية. دخلني الشك ليأكل كل ذلك التفاؤل الذي امتلكني عن مستقبل العراق منذ ١٩٩١.

الغريب في الأمر، أني أتذكر بالتحديد متى بدأ الشك يغمرني. حصل في صيف ٢٠٠٤، بينما كنت أتناول العشاء في بيت أحد الأصدقاء في أحد أحياء بغداد الراقية. كان حاضراً صديق آخر لي يتولى منصباً عالياً في الحكومة. ثلاثتنا، من خريجي خيرة الجامعات الأمريكية، قضينا المساء نتناقش في السياسة. صاحب الدعوة تكلم وكأنه على علم مسبق بانهيار العلاقة السنية الشيعية في العراق. كان يبدو مقتنعاً وواثقاً من كلامه وينطلق في الحديث على أرضية تاريخية تعود إلى أصول الدولة العراقية. اضطربت لهذا الكلام. كلانا بدأنا برفع أصواتنا، وذلك ما لم يحدث بيننا من قبل. الذي أزعجني هو الشعور بأنه كان يتطلّع لنهاية أولئك «السنّة»، الذين، كما توقع، سيُسحقون أمام الجبروت الشيعي. وكانت انتفاضة مقتدى الصدر مع أتباعه من رعاع وبلطجية وحثالة المجتمع العراقي «جيش الإمام» كما سميتهم في الرواية (اخترت الأحسن منهم فقط كشخصيات في



الرواية: حيدر، منتصر، والراوي نفسه)، قد أثبتوا تواً أنّ بإمكانهم محاربة الأمريكان في النجف. صديقاي كلاهما كانا متشوقين ومتفائلين بتلك المعركة، ليذهبا أبعد من ذلك في أن مقتدى قائد انتفاضة شيعية ثانية (الأولى كانت في ١٩٩١). ها هنا جُند المصادمة ضد السنّة في المستقبل، في حرب قادمة ستشبه تلك التي سُمِيت في الأساطير نهاية الزمان، والتي ستنتهي في ارتقاء الشيعة إلى مكانتهم.

في تلك الأمسية، رأيتُ شيئاً لم أره من قبل لدى صديقيّ ولو أن البعض كانوا يدّعون بأنه دائماً كان موجوداً. ربما. لا أعلم. كلنا تغيّرنا في ٢٠٠٣. ونظرتي إلى مستقبل العراق كانت تختلف في صيف ٢٠٠٤. كنت متخوفاً من الانزلاق إلى العنف واللامبالاة الذي بدأ يرفع رأسه في بغداد. لم أفهم كيف انتفض بعض الشيعة على القوة نفسها التي حررتهم من صدام. كانت هذه المخاوف قد ترعرعت خلال تجارب أصدقاء مِمّن عاش تجربة الحرب الأهلية في لبنان خلال الثمانينيات. خلال هذه التجارب في تلك الحقبة المظلمة، تعلمت درساً مهماً جديداً في السياسة. تعلمت كم كان ذلك النوع الخاص بالقسوة التي لا يقدر عليها سوى جنسنا البشري، وأعني الحرب الأهلية، قمة الشر الذي يمكن أن يتوصل إليه الإنسان عندما يريد أن يتغلب على أخيه الإنسان.



فهو أسوأ من استبداد صدام. ولهذا السبب وحده على كل إنسانٍ منّا، بغض النظر عن سياسته أو هويته، أن يتجنب الذهاب إلى هناك مهما كان الثمن الذي عليه دفعه.



٤

عدا صدام حسين ومقتدى الصدر، عرفتُ كل السياسيين الذين ورد ذكرهم في الكتاب. عملت مع عدد كبير منهم خلال فترة المعارضة في التسعينيات في الغرب وفي كردستان العراق. كنت أعرف الأشخاص الحقيقيين وليس الذين صغتهم في روايتي. من ضمنهم كان السيد مجيد الخوئي، الذي قُتلَ في اليوم العاشر من نيسان ٢٠٠٣ كما وصفته. أنا لم أفتعل هذه الحادثة ولا تفاصيلها كما نزلت في الرواية.

كنت أعرف السيد مجيد شخصياً، وأحترمه برغم اختلاف وجهات النظر بيننا في بعض الأمور. قابلته في لندن في بداية التسعينيات بعد فترة قصيرة من هروبه من النجف سنة ١٩٩١. نزلت تلك المقابلة في كتابي تحت اسم مستعار. السيد مجيد طلب مني في وقتها أن أخفي هويته، خوفاً من إساءة الظن الذي قد يلحق ما رواه لي عن إنقاذه لحياة ضابط بعثي جريح، والذي كان سيقتل لولا تدخله (كما قُتِلَ



المسكين حسن النجفي في الرواية، الذي يروي مصيره جد الراوي في فصل «المحادثة الثانية» وهي للعلم قصة حقيقية).

الراوي وكل أفراد عائلته شخصيات خيالية في الرواية لا علاقة لهم بأي عراقي حيّ أو متوفى. عرفت والتقيت بأشخاص مثلهم (ومثل حيدر، وأبو حيدر، ونجم الدين)، ولكنهم جميعاً من نسج الخيال. مع زملائي في مؤسسة الذاكرة العراقية، على سبيل المثال، ساعدنا رجل كان طياراً بمهمات إنقاذ وبحث خلال الحرب الإيرانية العراقية والذي بدا مرعوباً لدرجة انه اعتقد أن عملاء إيرانيين يتربصون لزملائه الطيارين ليغتالوهم ليلاً، كما وصفت في فصل «قتل حميم». لا أستطيع أن أشهد أن ادّعاءاته كانت صائبة، ولكني أشهد أن هكذا مخاوف تزايدت بشكل كبير بعد ٢٠٠٣. كان هناك الكثير من تصفيات الحسابات في السنوات الأولى. الكثيرون قتلوا بصمت خارج الأضواء. بالنهاية رتبنا لزميلنا في «مؤسسة الذاكرة» طريقة للعمل خارج العراق لمدة عام. لو شبّه القارئ الشخصيات التي وردت في الكتاب مع أشخاص حقيقيين، فهذه مجرد صدفة.

القصص التي يرويها أبطال قصتي تعتمد على أحداث واقعية. الظروف في سجن الرضوانية خلال عام ١٩٩١، مثلاً، كما وُصِفَت في الرسالة التي هرّبها والد الراوية وبعثها



لزوجته، نقلتها تقريباً بالكامل من شهادة السيد قاسم بريسم من البصرة، وقد أجرى المقابلة الزميل في مؤسسة الذاكرة مصطفى الكاظمي، وذلك في عام ٢٠٠٥ (وجرى بثّها مع بقية المقابلات على الهواء في تلفزيون العراق لمرات عديدة).

لقد محا الجيش الأمريكي جماعة اسمها «جند السماء» كليّاً، كما ذكرها راويتي وحيدر، وكما وردت على الأنترنت في «التايمز» اللندنية في ٢٩ كانون الثاني ٢٠٠٧. ومن جهة أخرى، تمكنت من مطالعة تقرير سري للشرطة العراقية كتب مباشرة بعد الضربة، مليء بالصور، هرّبه لي ضابط أمن كان من أوائل الذين زاروا موقع الحدث المدَمّر شمال النجف. أنا ليس لديَّ علم إن كان الأمريكيون يعلمون بما قاموا به، وأميل للاتفاق مع الذين كانوا على الأرض والذين قالوا إن الأمريكان قد خُدِعوا من قبل شيعةٍ خصوم لـ«جند السماء» أرادوا إبادة زملائهم الشيعة.

الأحداث في هذا الكتاب الخيالي تتبع التاريخ الحقيقي لما حدث: مقتل السيد مجيد، الحصار الذي أقامه مقتدى الصدر على بيت السيستاني وبقية المراجع، تأسيس مجلس الحكم، الحروب بين بيتي الحكيم والصدر، إلقاء القبض على صدام حسين، المفاوضات حول إيقاف تنفيذ أو «تعليق»



مذكرة إلقاء القبض على مقتدى الصدر، حرب النجف، موالاة الصدريين للجهاديين السنّة (وأحسن مثال على ذلك هو الشيخ أحمد الكبيسي الذي أرسل عدداً كبيراً من الجهاديين من المثلث السُنّي إلى النجف وكربلاء دعماً له، كما و«حركة حماس» التي أشارت إلى السيد مقتدى بالاسم عندما دَعَمتْهُ)، ثم هناك الدور الذي لعبه آية الله السيستاني في إيقاف القتال في النجف وعند تفجير مرقد الأمامين العسكريين في سامراء، والحرب الأهلية التي اجتاحت بغداد، وعملية شنق صدام حسين.

نعم، كانت هناك مذكرة إلقاء القبض على مقتدى الصدر لمقتل السيد مجيد الخوئي أصدرتها القوات الأمريكية المحتلة معتمدة على التحقيقات التي قام بها قاضٍ من النجف إبتداءً من الشهر الرابع من ٢٠٠٣، تحقيقات لم يُحرّض عليها الأمريكان ولا علاقة لهم بها (حتى أنهم لم يكونوا في النجف حينما بدأت). وتم إيقاف العمل بالمذكرة إلحاقاً بصفقة سرية بين البيت الشيعي وسلطة المحتل في الشهر الثامن من ٢٠٠٤. ثم بعد انتخاب أول حكومة شيعية في تاريخ العراق عام ٢٠٠٥، ألغت حكومة الجعفري، التحقيقات الأصلية وحلّت محلها تحقيقات جديدة مزيفة والتي بموجبها لم يُتهم أحد بالقتل وأُطلِقَ سراح المتهمين



بالجريمة الذين كانوا قد اعتقلوا اعتماداً على اعترافاتهم السابقة. كان رئيس الوزراء في حينها إبراهيم الجعفري، وهو عضو رفيع المستوى في حزب الدعوة والآن يشغل منصب وزير الخارجية.

القصص المتعلقة بفصل «الحديث الثاني» التي تخص دور السيد مجيد خلال الانتفاضة عام ١٩٩١ تتفق مع ما أخبرني به شاهد عيان قابلته في التسعينيات، والذي تم ذكره في كتاب «القسوة والصمت». نعم، كان هناك صبي عمره ثماني سنوات، اسمه أحمد، أنقذه السيد مجيد، تماما كما مذكور في الكتاب. والضابط البعثي الذي أنقذه السيد مجيد، هو أحد سكان مدينة النجف، الذي طلب حماية السيد مجيد له (وهي شيمة عربية) تشبه تماماً ما حدث للسيد مجيد حين طلب حماية السيد مقتدى الصدر له. لكن ما حدث للسيد مجيد هو العكس تماماً حيث رفض مقتدى حمايته، لا بل أمر بقتله كما هو مذكور في الرواية.

الفرق في تصرفات الرجلين، الأول الذي أعطى حماية في ١٩٩١، والآخر الذي رفضها في ٢٠٠٣، وكل منهما سيّد من أبرز البيوت الدينية في العالم الشيعي، كان سبباً آخر في اختياري أسلوب الرواية في هذا الكتاب. هذا كتاب، كما ذكرت سابقاً، يبحث في الشخصية والأخلاق في السياسة،



وليس في الأحداث فقط. كما يحاول أن يتناول تقلبات الأفكار في الحقب الحرجة في حياة الأمم.

في كتابته عن أيامه في المعارضة الفرنسية أيام الحرب العالمية الثانية، ذكر البير كامو أن الشخصية المتميزة أخلاقياً، أي التي تمتلك الحكمة والقابلية على تحمل الآخر المختلف عنها، نادرة جداً في السياسة، ولكن العكس تماماً يقال عن الذكاء. الكثيرون أذكياء ويمكنك مصادفتهم في العديد من المجالات الحياتية، ولكن شخصياتهم في الأغلب لا تنم عن خلقٍ عالٍ وقابلية على فهم للآخر.

عم الراوي، على سبيل المثال، هو شخص ذكي فوق العادة، وهو يجسِدُ تلك الملاحظة لالبير كامو. هناك مجالات كثيرة في السياسة لا علاقة لها بالشخصية أو بالفشل الأخلاقي للأفراد. المشكلة تكمن في أن الثقة ـ وهي خاصية جوهرية في السياسة ـ هي حكم يُعطى على أساس الشخصية والأخلاق. هناك نقاط تحول في حياة الأمم، كما في العراق عام ٢٠٠٣، عندما تصبح الشخصية وليس الذكاء هي المحددة لكل شيء، عندما تتحولُ أفعال الأشخاص، وخاصةً السياسيين من بينهم، تلقائياً إلى التزامات. حينها سيكون هناك ثمن باهظ يدفعه الإنسان لكل خيار يتخذه.



هكذا كان العراق حين قُتِلَ السيد مجيد وحين صمت البيت الشيعي على قتله، ثم تآمروا للتغطية على الجريمة.

شهدتُ أعداداً لا تُحصى من التصرفات المشبوهة لأفراد من «العراقيين الأجانب» الراجعين من المنفى، وخصوصاً أولئك الذين احتلوا مناصب رفيعة في الحكومة. شاهدتهم يسرقون ويخونون من دون أن ترمش لهم عين. حجم الفساد صدمني، حيث فاق ما كان يحدث في أسوأ أيام حزب البعث. بعض ذلك كان متوقعاً، كان من الصعوبة تحاشيه في فترة تحول فيها اقتصاد العراق إلى الاعتماد شبه الكامل على النقد ـ لا بنوك، ولا بطاقة إئتمان، فقط أكياس من النقود يتداولها المسؤولون في الحكومة. كيف لا يكون هناك فساد؟ أصلاً ما معنى الفساد في مثل هذه الظروف؟ وبأي معايير، وتحت أي نظام قانوني، نستطيع الحكم على «الفاسدين»؟ ليس هناك سلطة تحكم البلاد ولا شرطة ولا حتى قوانين تجذرت في المجتمع. لا بد وأن تكون الطبقة الحاكمة هي الأكثر فساداً من أي مواطن. لكل هذه الأسباب، قد أستطيع أن أجد في قلبي نوعاً من التعليل للفساد، على أساس أنها فترة انتقالية مؤقتة، ولكن من المستحيل أن أقبل أي تعليل للقتل.

ضمن الأعمال التي استندتُ عليها في روايتي، كتاب معد



فياض عن مقتل السيد مجيد الخوئي، **«ظهيرة ساخنة جداً»** (بيروت، ٢٠٠٧)، الذي نشر في البداية كسلسلة من المقالات في جريدة **«الشرق الأوسط»** بعد بضعة شهور من مقتله. فياض رافق السيد مجيد في عودته إلى النجف في ٢٠٠٣ وكان معه في ضريح الأمام عندما أثار الرعاع الفوضى. قبض رجال مقتدى عليه وعلى السيد مجيد وقيداهما، ولكنهم أفرجوا عن فياض فيما بعد. هناك تفاصيل ذكرتها عن مقتل السيد مجيد لا يرد ذكرها في كتاب معد فياض وذلك لأنه بعد سنوات من المحاولات والتحري، استطعت أن أعزز ما كتبه فياض، وأن أضيف بعض التفاصيل المهمة، خاصةً بعد اطلاعي على الملف الذي تواطأ كل من البيت الشيعي في عام ٢٠٠٤، ثمّ مجلس الحكم، ومن بعدها حكومة الجعفري في عام ٢٠٠٥، وأخيراً حكومة المالكي بين ٢٠٠٦ ـ ٢٠١٤، وقاموا، جميعهم، بجهد كبير لإخفائه واستبداله بملف جديد مزور، ورفع يد السيد مقتدى كلياً عن الجريمة.



٥

مسألة التغطية على مقتل السيد مجيد بحد ذاتها أهم من جريمة القتل نفسها. ولهذا السبب اخترت كلمة «الفتنة» عنواناً لهذه الرواية في اللغة العربية، بدل، مثلاً، من كلمة «الخيانة». فالناس يَقتلون أو يُقتلون كل يومٍ في العراق، ولكن ليس كل هذا القتل بالأهمية نفسها ليكون سبباً للفتنة.

«الفتنةُ أشدُ مِنَ القتلِ» تقولُ الآية القرآنية في سورة البقرة. هذه فكرة غريبة في أولِ وهلة. هل هناك شيء أسوأ من القتل؟ ألم تحرّم جميع الأديان السماوية جريمة القتل، وبأشد الطرق؟ الأغرب، لو تعمقت في الموضوع، لوجدت أن كلمة الفتنة ليس لها مرادف في اللغة الانكليزية (تحتاج إلى جملة أو أكثر للتعبير عن معنى الكلمة الواحدة ولذلك اخترت عنواناً آخر تماماً للطبعة الإنكليزية لهذا الكتاب). ولا أتوقع أن يكون لها مرادف في اللغات الأوروبية الأخرى (لا يمكنني الجزم في هذا حيث لا أتقن هذه اللغات). والسبب



حسب ما أظن لأن فكرة الفتنة متجذّرة ونابعة من تاريخ عربي وإسلامي طويل وخاص بنا.

هذا لا ينطبق على كلمة الخيانة، حيث أن الكل يخون وفي جميع الحضارات والمجتمعات والكلمة تورد في كل اللغات. ونحن نعرفُ أن للخيانة أشكالاً وأنواعاً تنطبق على كل الناس، إلى الحد الذي يمكن القول إن الخيانة لها أصول في الحالة الاجتماعية للجنس البشري. «الإنسان حيوان اجتماعي بالطبع»، كتب أرسطو، ومن هذا المنطلق، في ظروفٍ خاصة، ينحاز إلى خيانة زوجته أو صديقه أو أخيه المواطن، وهذه حالة قد يكون لا محال منها وخاصةً في المجتمعات المتقدمة والمعقدة، والأدب العالمي عبر القرون مليء بالقصص والأمثلة توضح ذلك.

قامت المفكرة السياسية المرموقة، جودث شكلار، بتتبع وتصنيف أشكال الخيانة المختلفة، وخاصةً السياسية منها، في كتابها «الخطايا العادية» المنشور من قبل جامعة هارفارد. وقد استعنتُ بكتابها في فصول عدة من رواية «الفتنة» أهمها الفصل المعنون «الخيانة» الذي يراجع فيه الراوي الأشكال المختلفة للظاهرة التي صادفها في حياته منذ ٢٠٠٣. نتيجة التعقيدات والملابسات التي يتلمسها بطل الرواية للخيانة، والغموض المقترن بالمعاني المختلفة للكلمة، نفهم انه



يستحيل الحكم على مجموع أنواعها بشكل مطلق، وهذه الدروس الحياتية في عراق ما بعد ٢٠٠٣يكتشفها الراوي المرةَ بعد الأخرى وخاصةً قرب نهاية سرده عندما يحاول أن يوازن بين خيانة صديقه حيدر لأبيه العائد من طهران، وخيانة الأب لأبنه ولأم حيدر في الفصل المعنون «حيدر ومنتصر».

ليس هناك شك أن الخيانة تلعب دوراً كبيراً في كل فصول هذه الرواية. ولا بد أنني سأُنتقَد على هذا. وسيكون النقدُ في مكانه لو لم أختر أسلوب الرواية لتبيان مدى تفشي هذه الظاهرة في المجتمع العراقي كما وجدتها بعد عودتي سنة ٢٠٠٣. نعم، بُنِيَ هذا الكتاب على حقائق، ولكن الكتاب ليس مجرد سرد لتلك الحقائق. على الدوام مسيرة الراوي هي باتجاه الكشف عن حقائق أكبر وأعمق من تلك التي تطفو على السطح. والأهم، كونها حقائق أخلاقية، إذا صح التعبير، أو قيمية، خافية عن النظر في أغلب الأوقات، مختبئة خلف علاقات شخصية أو عائلية تحتاج إلى الحفر في أعماق النفوس لتبيانها. وفي بعض الأحيان يستعين الراوي في هذا الحفر بأسلوب المبالغة وذلك لتمييز ما هو حق عن ما هو باطل أمام القارئ. مثلاً، الخيانة تجدها في الرواية في كل بيت وفي كل مكان وبين جميع أبطال الرواية عدا واحد: الأم، ولهذا معناه الخاص الذي أتركه للقارئ. في الكم



الهائل من هذه الخيانات هناك نوعٌ من المبالغة. ولكنها مبالغة تنم على حقيقة عراقية خاصة بنا في هذه الحقبة الزمنية العويصة التي يعيشها البلد مباشرةً بعد سقوط الطاغية. هذا ما يستنتجه الراوي في آخر صفحة بعد أن يكشف له صدام هوية الرجل الذي خان أبيه في سنة ١٩٩١، مباشرةً بعد انهيار الانتفاضة، حينها يدُبُّ اليأس في نفسه إلى الحد الذي يقول فيه:

«خيانات بلا نهاية... بين الطوائف وداخلها. تارةً يخون الجلاد ضحيتهُ وتارة تخون الضحية جلادها. وينقلب السحر على الساحر ليصبح الجلاد هو الضحية والضحية هي الجلاد... وكلهم دائماً ضحايا وجلادون في الوقت نفسه، داخلَ نفوسهم وأجسامهم. الكل دائماً يخون. المنفيون السابقون يخونون رفاقهم وأصدقاءهم، والكل من الداخل والخارج يخون الوطن. الأصدقاء، والعوائل، والبيوت الدينية المرموقة، وحتى الأخوان، الواحد دائماً يطعن الآخر في ظهره».

هذا الوصف لمجتمعه كما عاشه بطل الرواية، الشاب الذي انخرطَ في صفوف جيش المهدي فور سقوط النظام، حاله حال عشرات الآلاف من شبابنا (إن لم نقل اليوم مئات الآلاف). كل هذه الخيانات هي بطبيعة الحال الإرث البعثي



لثلاثين سنة من حكمهم في العراق. وصدام نفسه يفسر الأسباب والأساليب التي استعملها في الجزء الثالث من الرواية. ولكن هذا الإرث الثقيل لم يُمحَ مع انتهاء حكمه، بل تفاقمَ وارتفعت مستويات الخيانة فيه إلى أن أوصلتنا إلى ظاهرة جديدة أكثر فتكاً: الفتنة.

لا تجد كلمة الفتنة في الكتاب، عدا في العنوان. ولا يخطر على بال الراوي أن يستعملها كما يستعمل كلمة الخيانة. وهذا شيء طبيعي من وجهة نظر الراوي نفسه. فهو لا يرى الفتنة، مُجرد يكتشف الخيانات، الواحدة تلو الأخرى. لماذا إذن لم أعنون هذا الكتاب «الخيانة»؟

لنعد إلى كون فكرة الفتنة، عكس الخيانة، وحدها عربية وإسلامية. هي من صنعنا، لا غير، كما وأن الفكرة دائماً، وبالضرورة، تُعيدنا إلى الجماعة أو القطيع من الناس الذين تربطهم أواصر العصبية المعروفة التي حللها وفصلها ابن خلدون بما يكفي. أُسس تشكُّل هذه الجماعة قد تكون عرقية، قومية، دينية، أو طائفية، ولكن هذا ليس مهماً بقدر ما أنها تنتجُ بالضرورة ولاءً خاصاً بها سُمِي بالعصبية. هذا الولاء، حاله حال الدين نفسه، لا يقبل التساؤل أو التشكيك به، وخاصةً من الداخل. العصبية هي بمثابة الولاء الأعمى الذي لا يمتُّ إلى العقل والمنطق بأيةِ صلة. تصرفات هذه



الجماعة، أو بالأحرى القطيع، محكومة بالولاء الأعمى الذي يتصف به القطيع.

بطبيعتها هذه الجماعة جزء من جماعة أخرى أكبر منها، التي هي أيضاً جزء من جماعة أكبر، إلى الحد الذي تصل به للجنس البشري بكل أصنافه وأديانه وألوانه. لظاهرة الفتنة خصوصية حركة مشابهة يجب الانتباه لها: تبدأُ صغيرة ولكنها تنتشر كالحجرة المرمية في بركة ماء ساكن. اللافت للنظر انها تنطلق وتترعرع دائماً في أولياتها داخل القطيع الواحد وعلى يد فردٍ أو عددٍ صغيرٍ من الأفراد. ومن ثم، على مراحل عدة، تنتقل من عدد قليل من الأشخاص إلى عدد أكبر وأكبر، ثم إلى جماعة جديدة ومنها إلى جماعات أخرى إلى أن تغطي الأمة بأكملها. من هنا يأتي الرعب من الفتنة في الإسلام (والرعب هو الكلمة الأصح لا الخوف). هذا الوصف لحركة الفتنة من نقطة انطلاقها في عملية قتل السيد مجيد إلى أن شملت البلد بأكمله لتصبح سياسة جديدة بحد ذاتها، ينطبق على الأحداث في العراق بعد ٢٠٠٣.

في الرواية هذا «العدد القليل من الأشخاص» تواجدوا كأفراد دخلوا إلى العراق مع الاحتلال. ومعظمهم أصدقاء للسيد مجيد. يسمعون خبر الحادث، وفي البداية لا يعرفون ما يفعلون، ثم عن درايةٍ يغضون النظر، ويقنعون أنفسهم بما



أرادوا تصديقه. ثم بعد مناورات لا علاقة لها بمقتل السيد مجيد، يتم اختيارهم من قبل المحتل ليشكلوا مجلس الحكم، نواة النخبة السياسية العراقية الجديدة، الذي تشكلت من بين أعضائه «عصابة الثلاثة عشر» ـ المصطلح الذي يختلقه عم الراوي لوصف البيت الشيعي في مجلس الحكم. الفتنة تنطلق بعد كل هذه المناورات عندما اختار البيت الشيعي الصمت أولاً ومن ثمّ التغطية على مقتلِ السيد مجيد.

بدأت الفتنة إذن داخل الجماعة الواحدة على يد أفراد (بضعة أفراد كانوا الناشطين بين الثلاثة عشر ولكنني لم أدخل في هذه التفاصيل في الكتاب)، ثم انتقلت كالسم الذي يسري في البدن إلى مجلس الحكم ومن ثم إلى الطبقة الحاكمة كافة ومنها إلى شرائح المجتمع العراقي كافة بما فيها سُنّتهم العرب، باستثناء مجموعات إرهابية صغيرة في بداياتها مثل «القاعدة» و«داعش» والتي هي في حالة معاداة مستمرة للكل، وهذه المعاداة تسبق سقوط النظام حتى في حالة داعش (وقد أوضح هذا الأمر وليم مكانز في كتابه المهم الجديد عن الأصول الفكرية والتنظيمية لداعش، **«داعش ونهاية العالم»** المنشور في ٢٠١٤).

هكذا تحركت الفتنة في العراق بعد ٢٠٠٣، كما تحركت في صدر الإسلام ابتداءً من مقتل الخليفة عثمان إلى مقتل



الامام الحسين عبر عقدين من المجازر بين المسلمين التي سمى طه حسين مجموعها بـ«الفتنة الكبرى» في كتابيه المشهورين بهذا العنوان (ولم يُسمِّها الخيانة الكبرى).

يبقى أن نعترف أن كلمة الفتنة مطاطية المعاني والآثار والاحتمالات، وهذا الغموض الذي يلاحق استعمالاتها المختلفة لحدٍ ما مقصود وجزء من جمالها ومخاطِرَ استعمالها في أي نص. حسب القواميس، على سبيل المثال، في طيات كلمة «الفتنة» تجدُ دائماً على الأقل فكرتين: فكرة القتل، وفكرة الاختبار عن طريق النار، أو عن طريق كل هذا القتل الجمعي في بلادنا العربية الذي يمكن تشبيهه بالنار. وتلتقي الفكرتان في سورة الذاريات، «يوم هُم على النارِ يُفتَنُونَ». هذه الأصول تعطينا معنى الحكم على معدن الشيء، وتفرقة الشوائب عن ما هو صالح أو أصيل. ومعنى «الصالح» أو «الأصيل» هنا إشارة إلى ذلك الولاء الأعمى الذي تكلمتُ عنه. الفتنة تبعدك عن هذا «الأصل» حتى ترجع إليه بعد أن تُمتحن وتأخذ الفتنة مسارها.

لاحظ خطورة هذا التعريف لأي نوعٍ من العمل السياسي بمفهومه الحديث. لا مجال للسياسة بتاتاً فيه، ولا للأخذ والرد والمساومة والحلول الوسطية في حل التناقضات



الإنسانية. الأصل هو الحق، هو الدين، هو كلام الله الذي لا يقبل اجتهاداً أو وجهات نظر.

ما فتنة العراق على ضوء هذه الملاحظات؟ ولماذا دائماً العراق التي تحدث فيه الفتن؟

لا يمكن أن تكون الفتنة في عملية قتل السيد مجيد وحدها لأن آخرين قتلوا (الخليفة عمر بن الخطاب على سبيل المثال) ولم تحدث فتنة، وإنما الفتنة هي بالضرورة في الاختبار للجماعة الذي تلحق القتل. في عراق ما بعد ٢٠٠٣، عملية قتل السيد مجيد كانت البداية التي انطلقت منها الفتنة، أولاً بالصمت والتلفيق على تفاصيل المقتل، ومن ثم في العمل الدؤوب للتغطية عليه باسم مصلحة الجماعة. هنا الامتحان الذي فشلت به عصابة الثلاثة عشر. كلمة الفتنة صالحة لوصف هاتين العمليتين كون فيهما ذلك التفكير الجمعي الأعمى إلى كل ما هو حق أو باطل، والمدفوع بغرائز ممكن أن نسميها بدائية، غرائز الولاء الأعمى التابع للقطيع الذي ليس له استقلالية وجود خارج الجماعة.

في العراق بدأت العملية وراء الكواليس ثم طفت على السطح بأشكالٍ مختلفة كالمنافسة على المظلومية، ومن ثم



تُوِّجَت أمام أنظار العالم بأكمله على شاشات التلفزيون من الصين إلى أمريكا في مهزلة شنق صدام حسين في شهر كانون الثاني ٢٠٠٦. الاثنان، البداية الخفية المُطمَسة، والنهاية المُخزية لكل إنسان لديه بذرة احترام للنفس، يمثلان خرقاً لمعايير أخلاقية وقانونية وقيم بنيوية أصبحت أساسية في المجتمعات التي تعتبر نفسها حضارية. الفكر الحضاري حسب تلك المعايير، يطلق عليه أحياناً اسم دستور أو قوانين أو حتى حقوق الإنسان، ولكن جميعها في النهاية ترجع إلى الأخلاق في الحياة العامة للبشر، والتي هي عالم السياسة. هذا الذي كان مفترضاً أن يكون مشتركاً بين الجماعات ـ الدستور أو القانون أو مبدأ حقوق الإنسان ـ أصبح في عراق ما بعد ٢٠٠٣ حق الواحد على حساب الآخر كما في المجتمعات البدائية. والذي نجح في إعادتنا، عراقيين أو عرباً أو مسلمين، إلى عالم القطيع والولاء الأعمى لكل ما هو لاعقلاني وبدائي وبعيد عن فكرة المواطنة المتحضرة، هم النخبة الشيعية التي سُلِمَت زمام الحكم من سلطات الاحتلال.

ملخص ما أريد قوله في كل ما سبق هو أن الفتنة أهم وصف لمجموع ما حلّ بالمجتمع العراقي على يد قادته بين سقوط صدام في ٢٠٠٣ وشنقه في ٢٠٠٦. بعد شنق صدام،



أصبحت الدولة العراقية، أو ما تبقى منها اليوم، طائفية بالكامل وشبه تابعة لجارتها إيران. نعم، كانت هناك خيانات عديدة، منفصلة الواحدة عن الأخرى. ولكن الفتنة وحدها ككلمة، تجمعهم في بودقة واحدة وتعطي المعنى الكامن والعربي الأصيل وراء كل هذه الخيانات، ولذلك فضلته كعنوان لهذا الكتاب.




مكتبة
الفكر الجديد

٦

لنعد قليلاً إلى مفهوم الخيانة في العالم الذي بناه صدام حسين، والذي نظّر له في الجزء الثالث من الرواية (المُستَمد من موضوع كتاب **«جمهورية الخوف»**). في هذا العالم كانت الخيانة حاضرة في كل مكان. تخون من أجل البقاء على قيد الحياة، وهو تبرير مشروع لحد ما، لا يلام أحد عليه، أو على الأقل هو تبرير غامض من الناحية الأخلاقية ويصعب إدانة أحد به.

بصورةٍ عامة أهمية ظاهرة الخيانة كونها تمثل الفسحة التي تلتقي بها الشخصية على انفرادها مع السياسة في الحياة العامة. ونقطة الالتقاء هذه تأتي عن طِريق مفهوم الثقة، التي هي أساس كل شيء نفعله في المجال السياسي. لا تستطيع أن تقود أو تتبع أو تبايع أو تنتخب ولا حتى أن تشترك بمظاهرة أو تكتب بياناً، من دون نوع من الثقة المسبقة بالناشطين والعاملين حواليك. الخيانة بطبيعتها تُهشِم كل ذلك، تهدم



الثقة أينما وُجِدت ومن ثم السياسة بمعناها المألوف (إن كانت طغيانية الطبع أم ديمقراطية).أصلاً لا توجد السياسة في مجتمعٍ خالٍ من الثقة (حتى صدام يحتاج إلى من يمكنه الاعتماد عليه بين الحين والآخر).

لم يفهم أحد ظاهرة الخيانة أحسن من صدام، وتسخيرها كأداة حكم في العراق عن طريق محو الثقة. لقد وضع قوانين اللعبة بأكملها، أو بالأحرى صنعها بنفسه (حيث لا أعرف مجتمعاً آخر في التاريخ العربي الحديث استخدم محو الثقة بين الناس في السياسة إلى الدرجة التي وصل فيها في العراق بين ١٩٦٨ و٢٠٠٣). لذلك أقول صدام هو من صنع هذا العالم المُرعب الذي لا ثقة فيه بين مواطنٍ وآخر. كان يفوق الجميع في قدرته على المراوغة واستغلال مصادرها واللعب على المشاعر التي تنبثق منها. لذلك في الصورة الخيالية التي رسمتها له في الجزء الثالث من الكتاب، كان صدام أفضل من يستطيع فهم حجم فشل النخبة السياسية العراقية الجديدة بعد ٢٠٠٣. فهو استاذ اللعبة السياسية هذه والذي لم يستطع أحدهم أن يصلَ إلى مستواه برغم أن كلهم سعوا لذلك. حتى الخياتة لها أصول وأساليب كما في أي لعبةٍ أخرى، وهذا مالم يتوصلوا إليه كما قال صدام متباهياً عندما سمّاهم «أولادي».



لماذا استمرت الخيانة، بل وانتعشت بعد سقوط الطاغية؟ ولماذا كان العراقيون الأجانب، رجالاً عاشوا أنماطاً من الحياة العامة خالية نسبياً من الخيانة، أكثر خيانةً من العراقيين الذين لم يعرفوا سواها والذين لم يكن من المتوقع منهم أن يطرحوا لباس عدم الثقة والحذر بين ليلة وضحاها؟ ألكونهم ضعفاء وليس لهم قاعدة اجتماعية داخل العراق ليستندوا عليها؟ ولكن الكل لم توجد لهم هكذا قاعدة في عراق ما بعد صدام، لأن العراق كان خالياً من أي نوعٍ من السياسة بمعناها المعتاد. فإذن لماذا خانوا؟

لا أعلم. ولا أريد التخمين أكثر من إظهار سمات الشبه للإرث البعثي باستخدام صدام كمرآة لأساليبهم.

ولكن من هذا الباب سؤال آخر يطرح نفسه: هل يمكن أن تُكرَس سياسة الطائفية كنمط حكم بين الطوائف ابتداءً من خيانة حصلت داخل الطائفة الواحدة؟ هل يستطيع الفرد (أو الجماعة ذات الولاء الأعمى) أن يخون نفسه؟ هل هذا ممكن؟ ما علاقة الطائفية بمقتل السيد مجيد على أيدٍ شيعية، ومن ثم الصمت والتغطية من قبل كامل النخبة الشيعية في العراق؟ أين الفتنة بالضبط؟

من السذاجة الجزم بأن الخيانة لا تقوم بين أفراد الطائفة



الواحدة، وأنها فقط تحصل بين الطوائف المتعددة، الواحدة تخون الأخرى ومن ثم تبثّ الفتنة على الآخرين. التجربة والتاريخ تبين عكس ذلك. الخيانة ومن ثم الفتنة ليس فقط ممكنة داخل الطائفة أو الجماعة الواحدة، وإنما هي الطريق الأرجح لمسارها والتي تمهد الطريق إلى توسيع نطاق الفتنة من قطيع إلى قطيعٍ آخر. طبيعة الفتنة انها تُدخِلنا في دوامة انقسامات. تاريخ صدر الإسلام أحسن دليلٍ على ذلك. فقد بدأت الفتنة أساساً داخل الإسلام حينما كان الإسلام موحداً غير منقسمٍ على نفسه. ليس للفتنة معنى، أصلاً، من دون ذلك التوحيد. بدأت في بيت المسلمين إلى أن انقسموا على أنفسهم، وظلّوا ينقسمون إلى يومنا هذا. قد يجوز القول أن الخيانة لا تحصل داخل الطائفة الواحدة في لعبة سياسية محصلتها صفر، ولكن ذلك لم يكن الحال في عراق بعد ٢٠٠٣. المستقبل كله كان مفتوحاً للعديد من المسالك السياسية الممكنة. وما أردت التعبير عنه في هذه الرواية أنه في النهاية كانت الطائفة الشيعية هي الخاسر الأكبر نتيجة الفتنة التي انبثقت من صفوفها بعد ٢٠٠٣، والتي انتهت، كما يستنتج الراوي في تقريره المرفوع إلى عمّه القائد في جيش المهدي، بنحو «٢٦٨ تنظيماً مسلحاً نشطت في العراق بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٦».



هذا ليس رقماً من مخيلتي، وإنما جاء عن طريق دراسة مفصلة للسيد علي الحسيني الذي نشر عبر شبكة الانترنت بعنوان «**خارطة التنظيمات المسلحة في العراق**»، في عام ٢٠٠٥ بدايةً، ثم أعيد نشره عبر الانترنيت في ٢٠٠٧، ومن بعدها اختفى. لا أدري لماذا. ثم النتائج التي توصل إليها السيد علي الحسيني، توصل إليها آخرون من أمثال دكستر فيلكنز في كتابه الرائع، «**الحرب الأبدية**» المنشور في ٢٠٠٨.

هنا بالأرقام، وبالأسماء (راجع الفصل في الرواية المعنون «أسماء الأشياء») تكمن الفتنة. كلها انطلقت من ذلك اليوم الأسود الذي قُتِلَ به السيد مجيد وهو اليوم نفسه الذي سقط به الطاغية. بات العراق بعد واقعٍ كهذا «سؤالاً لنفسه» كما يردّ العم على الراوي:

الراوي: «هل العراق هشٌ إلى هذا الحد؟»

العم: «العراق مجرد اسم، ابني، لم يعد موجوداً كفكرة، فما بالك به كأمة. اسم... اسم آخر لتضيفه إلى الـ ٢٦٨ اسماً التي أعطيتني تقريراً عنها. كم أتمنى أن أقول شيئاً مختلفاً، لكنني لا أستطيع. ربما هشاشة البلد هي التي جعلته دائماً بحاجة إلى رجل قوي لكي يحكم مكوناته المختلفة. لكن الآن، حتى الاسم اخذ يختفي وبسرعة



مخيفة. لاحظ، ليست هناك منظمة واحدة في قائمتك تشير إلى شيء اسمه العراق. لم يكن الأمر كذلك في الماضي».

التحدي المتجسد في هذا الطرح يمكن تلخيصه بطريقةٍ أخرى: أن فشل عراق ما بعد ٢٠٠٣ كان فشل القيادة السياسية العراقية بأكملها، ولكن بالأخص الشيعية من بينها. التاريخ سيسجل أن المسؤولية الرئيسية تقع عليهم. كان الفشل ذاتياً، آتياً من الداخل وليس من الخارج، ولا يمكن الاختباء وراء وحشية الطاغية قبل ٢٠٠٣ أو كارثة الاحتلال بعدها. المهم أن نعترف أن فشلنا ـ نحن «المعارضة السابقة» أو «النخبة الشيعية» أو «مجلس الحكم» ـ لم يكن فشلاً موضوعياً خارج إرادة أحد. ما أردتُ جلب الانتباه إليه هو ذلك الفشل الذي لا يمكن التنبؤ به والذي لم يكن في حسبان أي طرف قبل الحرب. هذا فشلٌ مصنوع من قبل رجال السياسة عن طريق أقوالهم وأفعالهم.

حربٌ أهلية وانهيار تام في العلاقات السنية ـ الشيعية لم يكن مكتوباً علينا نحن العراقيين كنتيجة حتمية للحرب والاحتلال أو حكم صدام. قادة عراقيون، عن وعي أو عدم وعي، صنعوا الفتنة التي ولدت الفشل. أفراد لهم ثقلهم، ممن لم ينطلقوا من أبشع ما في الطبيعة البشرية، ممن آمنوا حقاً بكل العراقيين وليس فقط الطائفة الشيعية بينهم، ممن



آمنوا بحقيقة شيء يسمي العراق، كان بوسعهم أن يديروا دفة الأحداث بطريقةٍ أفضل. كتب الآخرون الكثير عن مساوئ الاحتلال الأمريكي. لا حاجة لي لتكرار ذلك، لكن الفشل الأعمق من هذا، هو الذي موضوع هذا الكتاب، كان فشلاً عراقياً بصورةٍ عامة، وشيعياً بصورةٍ خاصة.

ليس من المعقول التوقع من الأكراد أو السُنّة العرب ـ وكلاهما أقليات متخوفة وعلى الدوام متحذرة وبحالة دفاع عن النفس ـ أن يكونوا وراء إنشاء عراق جديد. الفشل الذي أُشير له يجب أن يُلقى أمام أبواب القيادة الشيعية التي تم اختيارها من قبل الأمريكيين والذين كانوا متوهمين أن الشيعة لديهم قادة بإمكانهم أخذ الدور الرئيسي كنخبة جديدة تقود العراق.

بذلك أصبح عامة الشيعة الخاسرين الرئيسيين من الفتنة التي أُشعِلت داخل صفوفهم إلى أن أحرقت العراق بأكمله. فهم يمثلون أغلبية سكان العراق الذين كان بمقدورهم كسب البلد بأكمله، ولكنهم خسروه، أو بالأحرى خانوه وأشعلوا الفتنة فيه، حين فضلت قيادتها مصلحة الجزء على حساب الكل، وبالتالي خسروا الاثنين. لا أحد كان سيستفيد من النجاح أكثر من المواطن الشيعي العادي الذي ليست له علاقة بالسياسة ـ ذلك كان الوعد غير المكتوب الذي أعطته أمريكا



لقادة الشيعة في العراق، والذي فشلت هذه القيادة من استغلال الفرصة التاريخية التي وجدت نفسها أمامها لتحقيقه. بدل ذلك المكسب الكبير، والذي اسمه العراق، لعبوا لعبة المظلومية المكتوب عليها الفشل، أي المنافسة على من عانى أكثر خلال حكم الطاغية، والتحايل لجعل السُنّة العرب أو البعثيين السابقين يدفعون ثمن عقود من الظلم، والذي اعتبروه مسؤولية الطائفة السُنّية وحدها.

الحقيقة تقال إن النمط الخاص لحكم البعث في العراق كان في توريط الكل في جرائمه، وقد أشبعت هذا تحليلاً في كتاب «**جمهورية الخوف**». معظم الشعب في العراق أُجبِرَ أن يكون بعثياً - لم يختر هذا الحزب - وأُجبِرَ أن يتواطأ مع النظام على شكل يومي، وأُجبِرَ أن يخون أخاه المواطن باستمرار، ولدينا الكم الهائل من والوثائق البعثية بعد سقوط النظام التي تثبت ذلك بطريقة لا تقبل الشك. وفي هذا الخصوص أقترح كتاب جوزيف ساسون المهم المنشور في ٢٠١٢ بعنوان «**حزب بعث صدام حسين**» الذي يستند على هذه الوثائق الجديدة التي لم تُدرس من قبل.

منطق هكذا دولة بعثية، بالإضافة إلى تاريخها، يعني انها ليست ولم تكن أبداً دولة طائفية سُنّية كما يقول الكثيرون هذه الأيام. كلا، كانت أسوأ من دولة طائفية، حيث أنها دولة



تكرس الخيانة في قلوب المواطنين بأكملهم، بغض النظر عن طائفتهم، ومن هذا الباب تنشر الدولة عدم الثقة بين المواطنين كافة إلى أن يتحول مفهوم المواطنة نفسه إلى فقدان الثقة بين الكل تجاه الكل. في هكذا عالم ينفرد المواطن وكأنه في غابة لوحده. يتحول كما وتتحول فكرة المواطنة نفسها، إلى كتلة من المخاوف المدمرة لكل الأواصر الاجتماعية العادية (من العلاقات العائلية إلى روح المواطنة). هذا عكس الحال تماماً عما هو عليه في الدول الاعتيادية التي لم تمر في هكذا تجربة شاذة.

ولذلك الأصح أن نقول أن هكذا دولة، أي الدولة البعثية المُثلى من الناحية النظرية (والتي يدخل في تفاصيلها الصدام الخيالي في الرواية)، تقمع الجميع ولا ترحم أحداً وتورط الكل في ما تفعله. هذا كان معنى كتاب **«جمهورية الخوف»**، الذي صفق له الكل، بما فيهم رموز النخبة السياسية الحالية، من دون أن يفهموا ما قرأوه (إن قرأوه، وأنا أشك في ذلك). على أية حال، هذا كان الإرث البعثي الذي على أساسه أردنا أن نبني العراق الجديد. ربما كانت محاولة شبه ميؤوس منها من البداية. يصعب عليّ أن أقول هكذا حيث أنني قلت سابقاً أن الأمل دوماً كان نهجي في النشاط السياسي. برغم هذا يجب أن يقال.



والآن لننتقل إلى مصادر الفتنة كما وردت في الكتاب وبعض التفاصيل الصغيرة التي لم تناقش بعد.



٧

لقد كان كل أعضاء البيت الشيعي (الذين سماهم عم الراوي بعصابة الثلاثة عشر) متورطين. فإمّا إنهم خططوا للتغطية، أو كانوا على علمٍ مسبق بها، ثم أذعنوا لها. ويجدر بالذكر أن أغلبهم كان من أصدقاء السيد مجيد المقربين، والذين عملوا معه في المنفى عن قرب طوال التسعينيات. نعلم كل هذا لأن الأدلة على التغطية طفت إلى السطح بكاملِ تفاصيلها من خلال الوثائق الأمريكية التي نُشِرت بشكلٍ غير قانوني من قبل. ويكيليكس «(wikileaks.org/cable/2004/07/04BAGHDAD119.html)». كما وهناك المقالة التي توصلت إلى النتائج نفسها بناءً على هذه الأدلة لأيمن جواد التميمي والمنشورة في الجريدة اللبنانية «ديلي ستار» في ٢٠ أيلول ٢٠١١.

حسب هذه الأدلة (ومن معارفي وما قيل لي شخصياً من قبل بعض المتورطين في الأسابيع التي تلت المقتل وهم من أعضاء البيت الشيعي والتي سبقت ما نشرته ويكيليكس



بسنوات) نعرف كم كان البيت الشيعي حريصاً إلى أبعد الحدود لإبقاء قصة التغطية سراً، ولهذا السبب بالذات لم يعطوا نسخة من رسالتهم المشتركة (والتي وقعها الجميع) إلى سلطات الاحتلال. نعرفُ هذه المعلومة الأخيرة لأنها جاءت في تقرير أحد الأمريكيين المسؤولين عن العلاقات بين البيت الشيعي وبول بريمر. ألَحَّ هذا المسؤول في حكومة الاحتلال على أن يُعطى دليلاً على موافقة الكل في البيت الشيعي قبل رفع قوات الاحتلال مذكرة الاعتقال عن السيد مقتدى الصدر. لذلك رُفِعت الرسالة (الموقعة من قبل الجميع) عالياً ليقرأها المسؤول الأمريكي ومن ثم يقدمُ تقريره إلى بريمر على أساسها. التقرير نُشِرَ في ويكيلكس ومن خلاله نعرفُ كم أرادَ البيت الشيعي أن تبقى خيانتِهم لصديقهم السيد مجيد سراً مخفياً إلى الأبد.

وينطبقُ الشيء نفسه على نوري المالكي وحكومته، الذي استمر في التغطية التي بدأت مع البيت الشيعي ومن ثمة حكومة الجعفري. الظريف بخصوص المالكي إنه في رسالةِ بالغة السرية سُرِقت من مكتبه ومُوَقعة من قِبله، والمؤرخة ١٤ كانون الأول ٢٠٠٧، نعلم أنه نصَحَ القيادة العليا لجيش المهدي ومقاتليهم، وبضمنهم قتلة السيد مجيد، بالانسحاب من بغداد مؤقتاً للحفاظ على «مكتسباتنا الشيعية الكبيرة»



وترك القوات الأمريكية تتقاتل مع الميليشات السُنية لوحدها. تؤكد الرسالة أن الانسحاب مؤقت، إلى حين يتم دحر سُنة بغداد وتطهيرهم من بيوتهم ومحلاتهم. هكذا تعاملت النخبة القيادية الشيعية بعد ٢٠٠٣ مع كل العراقيين (بشيعتهم المتمثلين بالسيد مجيد، وبسنتهم المتمثلين بسكنة بغداد)، وهكذا أيضاً تعاملوا مع حلفائهم الأمريكيين الذين أوصلوهم إلى الحكم.

في الواقع، السر الذي أخفته عصابة الثلاثة عشر (البيت الشيعي) بالتغطية على مقتلِ صديقهم لم يكن سراً. وهذا ليس غريباً فهذه هي الحال عادةً في الفتن التي تنتشرُ لتعمَّ الناس. أشك في أن أي شخص من أفراد الطبقة السياسية الشيعية في العراق بعد ٢٠٠٣، طبقة لا تقل عن بضعة آلاف شخص (يقدِّرهم صدام حسين في الرواية بعشرة آلاف)، من لم يُوسوس في جلسة خاصة أو حفلة عشاء لمن جلس قربه عن أسرار معرفته وإيمانه بأن السيد مقتدى هو الذي أمر بقتل السيد مجيد. كما وأن الكل كانوا عارفين في صدر الإسلام، في المدينة، مَنْ قتل عثمان وكيف دافع أولاد الإمام عليّ عنه. ولكن تم الكتمان على هذه «الحقيقة» (إذا صح هذا التعبير حيث أن لا أحد يعرف ماذا حصل بالضبط داخل بيت عثمان في اليوم الذي قُتِلَ فيه) واتُّهِمَ عليّ وبنوه بالتخاذل في



إنقاذ عثمان، ومن ثم توسعت الفتنة وانتشرت. في كلتا الحالتين، ما حدث لا يؤثر حقاً على مجرى الفتنة. المهم أن الجميع كانوا واثقين بأنّ ليس من مصلحة «الجماعة» (بما فيها تحالفاتهم ومستقبلهم السياسي على صعيد الأفراد) الاعتراف بهكذا حقائق. بمعنى آخر، يخونون شيعياً مرموقاً وبارزاً مثل السيد مجيد، «من أجل» مصلحة كل الطائفة الشيعية. وبالتالي، من هذا الباب، جاء النجاح الكبير لعملية طمس الحقيقة والتغطية على قصة قتل السيد مجيد.

أنا، بالطبع، أؤمن أن العكس تماماً هو الصحيح، ولهذا كتبت هذا الكتاب: طمر وطمس الحقيقة ومن ثم قلبه على رأسه تماماً يؤدي بالضرورة إلى فتك الجماعة نفسها التي ينافقون باسمها أصحاب الفتنة. وأعتقد أيضاً أن عملية التغطية على مقتل السيد مجيد بالذات، هي البذرة الفاسدة الأولى التي انبثقت منها شجرة الفشل الكبير للنخبة الشيعية في العراق بعد ٢٠٠٣. في الامتحان الأول في القيادة بعد سقوط الطاغية ربطوا نجاحهم بخيانة صديقهم، وهذا يمثل فشلاً ذريعاً في الأداء السياسي ناهيك عن البعد الأخلاقي له.

كما يقول راوي القصة في الجزء الثاني من الكتاب: «إذا كان أولئك الذين أصبحوا قادتنا الشيعة لا يترددون عن خيانة



شخصية بارزة من بينهم، فماذا عنا نحن عامة الشيعة، ناهيك عن غير الشيعة، هل هناك من لن يكونوا مستعدين لخيانته؟»

للسياسةُ كما أفهمها في الحياة العامة للشعوب أخلاق، لا مفر منها. قد تنكشف الحقائق بسرعةٍ فائقة أو قد يتأخر كشفها لعقودٍ من الزمن. وفي النهاية تنكشف الأخلاق التي حكمت القرارات، والناس هم من يقرّرون إن كانت مقبولة أو مرفوضة. من هذا المنطلق أقول: كان لزاماً عليّ أن أجعل مقتل السيد مجيد الخوئي في العاشر من نيسان، يوم سقوط الطاغية، العمود الفقري الفكري والأخلاقي لهذا الكتاب.

تغطية بهذه الضخامة يمكن تحقيقها عندما يتورط في الجريمة عددٌ كبير من الناس، إمّا مباشرةً أو بصورة غير مباشرة. صدام كان يتقنُ ويفهمُ ذلك النوع من التوريط، كان متميزاً بفن طمس الحقيقة وتوريط الناسِ على مدى ثلاثين سنة، لدرجة أنّه أعاد كتابة التاريخ بنجاح موجهاً العراقيين لكيف ومتى وماذا يفكرون حول أي موضوع تحت الشمس. العراقيون بعد ٢٠٠٣ لم يكونوا جميعهم غافلين عن ما كان يحدث حولهم عندما أضفوا صفات سيئة على كل أفراد الطبقة العائدة من المنفى (بغير حق في بعض الحالات) بسبب الخداع والكذب الذي رافق البيت الشيعي والطبقة الحاكمة.



وبالمصادفة تعبير «عصابة الثلاثة عشر»، التي استخدمتها في الرواية لوصف البيت الشيعي أو المجموعة القيادية المتكونة من ثلاثة عشر شيعياً من أعضاء مجلس الحكم الذي عيّنه بريمر، وهم الأفراد المعنيون مباشرة في عملية التغطية، تُعبِرُ ليس فقط عن وجهة نظر العم، الذي ابتكر العبارة في الرواية، وإنما تعكس أيضاً احتقار مقتدى الصدر والصدريين عامةً لهم بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٦. هناك منطق سايكولوجي غريب ومهم في الوقت نفسه: كلما ازدادت رغبة عصابة الثلاثة عشر، أو العراقيين الأجانب، أو البيت الشيعي (ناهيك عن عامّة المستفيدين العائدين من المنفى بعد ٢٠٠٣)، في الحصول على دعم السيد مقتدى الصدر، كلما احتقَرهم بالأكثر ـ ما عدا السيد مجيد الذي لم يحتقره بقدر ما كان يكرههُ، أو على الأرجح، يخافه. ولا بد من الاعتراف أن للسيد مقتدى الحق في أن يخاف من السيد مجيد الذي كان باستطاعته، لو بقي حيّاً، أن يمثل قيماً أسمى وأرقى وباسمِ شيعة العراق من تلك التي يمثلها السيد مقتدى.

الملف الأصلي بكل تأكيد تُلِفَ من قبل حكومة الجعفري في ٢٠٠٥، بعد عمليات التغطية التي قامت بها عصابة الثلاثة عشر، والتي تلتها في الفترة نفسها التبرئة المنكرة لقاتليه بواسطة إصدار عفو عام وإطلاق سراح الرجلين اللذين اعترفا



بتورطهما في عملية القتل خلال التحقيق الأصلي: مصطفى اليعقوبي ورياض النوري، وهما من أتباع مقتدى الصدر المتقدِّمين. فقط الحكومة الأمريكية تمتلك الآن نسخة أصلية من ملف التحقيق، الذي لا بد وأنه دُفِن بعد مرور كل هذا الوقت في دهاليز أرشيف الأمن القومي الأمريكي.

في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٢، في مؤتمر المعارضة العراقية في لندن الذي حضره ما يقارب الألف شخص، أنا والسيد مجيد خلال فترة الاستراحة للمؤتمر العام ترأسنا بصورة غير رسمية مجموعتين متنافستين من «المستقلين» (عراقيين غير منتمين لأي حزب تقليدي ممثل في المؤتمر والذين أصبح رؤساؤهم بأكملهم بمجلس الحكم). التفاصيل ليست ذات أهمية هنا، وكان قد مشى التصويت ضدي (كلانا كنا نعرف كيف نتكلم أمام الجمهور، ولكنه كان أكثر إقناعا مني). في تلك اللحظة بعض من يدّعون انهم أصدقائي في المجلس الوطني العراقي قاموا بحيلة لتلافي وقوع التصويت. دخلوا مسرعين ليعلنوا بأن المؤتمر العام سيعود للانعقاد. فعدنا جميعاً مسرعين للقاعة العامة لأنهم قالوا أن التصويت سيجري قريباً. انحلّ اجتماع المستقلين، وسخر «أصدقائي» منه فيما بعد وضحكوا على قدرتهم على خداع السيد مجيد. شعرتُ بالحرج حينها، ولكنهم كانوا قد أحبطوا السيد



مجيد، وتلك كانت غايتهم. أظنُ أن السيد مجيد كان على علمٍ منذ البداية بما حدث. أما أنا، فقد كنت معروفاً بسذاجتي ولم يخطر ببالي في حينها انها خدعة.

بعد أسبوعين من ذلك الحادث، كنتُ مع والدي، الدكتور محمد صالح مكية، وعدد من ضيوف ديوان الكوفة في لندن في مطعم إيراني، وكان هناك عدد من قناني النبيذ الفارغة على المائدة. عندما حان وقت الدفع، أشار العامل إلى أن زبوناً جالساً في إحدى زوايا المطعم الداكنة كان قد دفع حسابنا، والذي لم ألاحظه من قبل. كان ذلك الرجل السيد مجيد، بدماثة أخلاقه حقاً رجلاً يستحق لقب «السيد».



٨

والد السيد مجيد كان آية الله العظمى أبو القاسم الخوئي، الذي يكنُّ له الجميع في العالم الشيعي الاحترام، عالم ديني لم يضاهه أحدٌ شهرةً منذ عام ١٩٧٠ ، السنة التي توفى فيها السيد محسن الحكيم. تُوُفيّ السيد أبو القاسم الخوئي بعد المأساة التي حلت بالشيعة عند دحر الانتفاضة في عام ١٩٩١ ، وبعد مدة تم اختيار أحد ألمع طلابه: السيد علي السيستاني ليصبح المرجع الأعلى الذي كان في تعليماته وأسلوبه الهادئ المتزن قريباً من معلمه وأستاذه الكبير، وهو الذي صلى عليه بعد أن توفي ليدفن في النجف في جامع الخضراء (ومن ثم دُفِن بقربه ابنه السيد مجيد بعد ٢٠٠٣). كان لهذا وزنٌ بين أفراد الحوزة الدينية المؤثرة على عملية اختيار المرجع الأعلى الجديد. وقد بنيت شخصية الإمام «الصامت» في الرواية عليه. إلى يومنا هذا يبقي السيد السيستاني أقدر سلطة روحية للشيعة في العالم الإسلامي.



وقد تشرفتُ بلقائه في عام ٢٠٠٤. ولكن السيستاني، على عكس المرجع «الصامت» الذي تخيلته في كتابي، كان قد رفض لقب «آية الله العظمى» (وهو أول آية الله في التاريخ يقوم بذلك)، وقد ألحّ في طلبه هذا على أتباعه في صفحته الإلكترونية.

يكره السيستاني التدخل في الشؤون السياسية، ولا يقوم بذلك إلاّ في الأوقات المحرجة للوطن وليحلّ تخبطات النخبة الشيعية الحاكمة، والذي يشعر بمسؤولية خاصة تجاهها. كان هو الذي تصدّى لإيران، لِحدّ انه لم يرضَ برئيس وزراء متواطئ مع النظام الإيراني، ودعم شخص حيدر العبادي كرئيس وزراء، أول سياسي عراقي شريف منذ عام ٢٠٠٣. نجح السيستاني في تولي حيدر العبادي للحكومة محل الاختيار الإيراني، نوري المالكي. ولكن، للأسف، الأمل في نجاح العبادي ضعيف جداً. فالحيتان الإيرانية وعملاؤها العراقيون يحومون حوله بالإضافة إلى نظام المحاصصة الطائفي الذي يقيد العبادي في من يستطيع تعيينه في الحكومة. غرابة الأمر أن يتحول السيد السيستاني - وهو يناهز التسعين من عمره والمولودُ في مدينة مشهد الإيرانية - إلى آخر عراقي وطني غيور يقف مع أي شيء يمثّل سلطة حقيقية لِعراق مستقلٍ اليوم!



ثالث «البيوت الثلاثة» الذي يلعب دوراً في هذا الكتاب، والأهم في قضية حادثِ قتل السيد مجيد، هو بيت الصدر. ترجع مكانته في العالم الشيعي إلى النصف الثاني من القرن العشرين، وترجع بالأخص إلى شخصية محمد باقر الصدر، عالم شيعي لامع خلال السبعينيات، الذي كان أيضاً أحد طلبة المرجع الأعلى الخوئي. وكان محمد باقر الصدر عضواً مؤسساً لحزب الدعوة في بداية الستينيات (سنة التأسيس مُتنازع عليها).

لقِيّ السيد محمد باقر الصدر، وأخته بنت الهدى الناشطة في حزب الدعوة، حتفهما ببشاعةٍ وقسوةٍ رهيبة على يد رجال أمن صدام حسين في نيسان ١٩٨٠، خمسة أشهر قبل أن يعلن صدام حربه على إيران في أيلول ١٩٨٠. التوقيت لم يكن صدفةً، وإنما يؤكد خوف النظام من السيد محمد باقر الصدر في أن يصبح خميني العراق في المستقبل القريب. لم يكن هذا الخوفُ في مكانه حيث كان حزب الدعوة ضعيفاً وصغيراً في حينها. على أية حال، شخص السيد محمد باقر كان مرعباً للنظام خاصةً بعد دعمه للثورة الإيرانية وكون الرجل خصماً عنيداً وصاحب حضور وعدواً فائق الذكاء لحزب البعث، بالاضافة إلى كونه العالم الديني الوحيد صاحب المنزلة الدينية بين الشيعة المرشح مكان آية الله



الخوئي عند وفاته. كان صدام على علمٍ بذلك. لذلك يصف صدام في الرواية بالتفصيل ما فعله بالسيد محمد باقر الصدر وأخته في ١٩٨٠، ولماذا. كل ما قاله في الرواية بالطبع من نسج خيالي، حيث نحن لا نعلم بالضبط كيف قُتِلَ السيد محمد باقر وأخته، ولكن في الوقت نفسه لا أعتقد أن أياً من الصدريين أو المتخصصين في هذه الفترة التاريخية سيعترضون على ما كتبته بهذا الصدد.

ابن عم السيد محمد باقر الصدر هو السيد محمد صادق الصدر (الذي أشير له بالرواية بالسيد صادق). كان السيد صادق والد مقتدى وقد قضى أغلب الثمانينيات بحالة مرارة وإستياء، ليس من نظام البعث الذي قتل ابن عمّه، ولكن من آية الله العظمى أبي القاسم الخوئي والحوزة النجفية التي كان يمثلها. السبب كان افتراضه أن الحوزة العلمية أزدرتهُ ولم تُعطِه المركز الذي يليق به في التسلسل الهرمي الديني في النجف. وأنا لا أستطيع أن أحكم على افتراضه هذا فليس لديّ معلومات تثبتُ افتراضه أو تنفيه. ولكنني أعلمُ أن السيد صادق كان صريحاً في تعليقاته وأكثرها منشورة على اليو تيوب، من بينها مقابلة «الحنانة» الشهيرة التي ذهب فيها ليقول أن آية الله أبا القاسم الخوئي قد تواطأ مع نظام صدام حسين لإبعاده عن المكانة التي يستحقها في النجف.



عند نهاية الانتفاضة عام ١٩٩١ تحولت النجف إلى خرابة: مُسِحت قطاعات شاسعة من المدينة، وحُرِقَت مكتباتها العظيمة، وطبقة بأكملها من علماء الدين يقدرون بالآلاف أمّا لقوا حتفهم أو هربوا خارج العراق. لذلك أصبح النظام بحاجة إلى شخصية بارزة تشرف على إعادة إعمار المدينة. وفي الوقت نفسه أرادوها شخصية عربية شيعية معروفة بكراهيتها لإيران. لهذا دعم النظام بصورة غير مباشرة ادعاءات السيد صادق بأن يصبح المرجع الأعلى في النجف حيث لم تكن تخلو المشاعر السلبية للسيد صادق الصدر تجاه الخوئي والسيستاني كونهما من أصل إيراني. وقام النظام بتمويله وتخويله سلطة إعطاء أو رفض إجازات الإقامة لرجال الدين غير العراقيين القادمين من بلدان مثل إيران، وأفغانستان، والهند، والذين يرغبون في الإقامة والدراسة في النجف على يد من تبقى من علماء الدين.

حصلت «مجموعة الأزمات الدولية» على معلومات من مصادر قيادية مهمة في حركة الصدر من خلال مقابلات مع الصدريين في العراق خلال عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٦. وقد تضمّنت تقاريرها خلال تلك السنوات عفو النظام عن أولاد السيد صادق وعدد من طلابه من الالتحاق في الخدمة العسكرية، وإعطاءه الصلاحية في ١٩٩٦ ليطلق مطبوعته



«الهدى» ـ وهي بادرة غريبة من نظام يضع قبضته على كل ما يُطبع ويُنشر في البلاد.

رجال الحوزة وأثرياء وشخصيات النجف الكبيرة التفّت حول السيستاني ليخلف الخوئي كمرجع أعلى. أرتفع غضب السيد صادق معتقداً أن حقّه المشروع في ولاية الشيعة قد سُلِبَ منه لمرةً أخرى بالرغم من الأموال الطائلة التي دفعها ليبعد طلاب العلم من أن يلتحقوا بمنافسيه من علماء الشيعة متسلحاً بصلاحيته برفض منح الإقامة لطلاب وعلماء الدين الذين لا يرغب بهم. على أثر ذلك قام بحملة مكثفة ضد علماء الحوزة التقليديين، متهماً فيها إياهم بالتخاذل، أو ما أسماه بـ«الصمت» بعد إعدام ابن عمّه، وكذلك بإبعاد أنفسهم عن الفقراء والشباب وإشغال أنفسهم بمسائل مبهمة عفا عليها الزمن.

بذلك وجد علماء الحوزة أنفسهم هدفاً لأسهم حملته، التي أهانتهم شخصياً، وهو شيءٌ لم يحدث من قبل في مدينة النجف المحافظة. منشورات رخيصة ومبتذلة بدأت تظهر تحط من قدر المراجع «الصامتة» ومطالبتهم بالعودة إلى إيران. في عام ٢٠٠٣، يوم وقوع جريمة قتل السيد مجيد، أحاط الصدريون بيوت آية الله السيستاني، وبشير النجفي، ومحمد إسحاق الفياض، مما أجبر السيستاني على مناشدة العشائر الشيعية لإبعاد رجال مقتدى عن النجف.



هذا التصاعد البغيض في الأحداث تُوِّجَ بمقتل السيد مجيد بأمرٍ من السيد مقتدى، وهذه حقيقة لا تقبل الشك لكل من اطَّلعَ على الملف الأصلي للحادث الذي كان بحوزة الأمريكان، والذي أُتلفت النسخة العراقية له من قبل أول حكومة شيعية منتخبة في تاريخ العراق (ولكن كافة أعضاء مجلس الحكم اطلعوا عليه، وقد تكون نسخة بحوزة الواحد أو الآخر حتى يومنا هذا). من أين جاء هذا الشاب المُسمى مقتدى الصدر الذي لم ينطق بكلمةٍ واحدة ضد النظام البعثي قبل سقوطه؟

السيد محمد صادق الصدر، والد السيد مقتدى، صاغ فكرة المرجع «الناطق»، واستمر في استخدام الأموال التي أغدقت عليه ليس فقط لجذب الطلاب إلى جانبه ولكن أيضاً لتهيئة «قاعدة شعبية» تتواجد حين ظهور الإمام المهدي المنتظر للمذهب الاثني عشري، الذي غاب ليعود في نهاية الزمان كآخر إمام اختاره الله لإزالة الظلم عن الشيعة وباقي المظلومين جميعاً ومن ثم نشر العدالة المطلقة في العالم. وفقاً لكتابات والده عن قرب رجوع الإمام المنتظر، حاول مقتدى الصدر، أصغر وآخر أبناء السيد صادق والذي قتل إخوته على يد صدام مع أبيه، تطبيق فكرة والده عن الإمام «الناطق» بالحق، أو العالم الديني الناشط سياسياً. ولذلك



أطلق على ميليشيتَهُ المتكونة أساساً من أتباع أبيه، اسم «جيش المهدي».

السيد محمد صادق الصدر لم يكتفِ فقط بتحدي الحوزة التقليدية في النجف، ولكن بدأ يتحدى إيران (بادّعائه بسلطتِهِ على شيعة العراق ونفي كون الخامنئي قائداً لشيعة العالم)، ومن ثم أخذ يتحدى نظام البعث نفسه، الذي أدى إلى مقتله مع ولديه. في نهاية التسعينيات تمادى السيد صادق في تصديق نفسه وبتوقعاته عن الظهور القريب للمهدي المنتظر إلى الحد الذي جعله يرتدي رداءً أبيض، علامة الشهادة، وذلك ما كرمه بها نظام البعث حين قتلوه مع اثنين من أولاده في شباط ١٩٩٩. بعدها، دخل التنظيم الذي بناه السيد صادق في سبات، إلى أن أحياه حادث مقتل السيد مجيد في العاشر من نيسان عام ٢٠٠٣، ذلك الحادث الذي هو المحور الأخلاقي لهذه الرواية والنواة التي انطلقت منها الحركة الصدرية في العراق.



٩

تختلف الآراء حول تاريخ سقوط صدام حسين. الإعلام والحكومة الأمريكية تؤكد على إنه كان في اليوم التاسع من نيسان عام ٢٠٠٣، وذلك لأنّه في هذا اليوم تحديداً أسقط الجنود الأمريكان تمثاله في ساحة الفردوس ونقلت الحدث جميع وسائل الإعلام في العالم، وهذا كان كلّ ما اهتم به العالم الخارجي. داخل العراق، الكثير من العراقيين، وأنا من ضمنهم، نعتبر العاشر من شهر نيسان عام ٢٠٠٣ هو يوم سقوط الطاغية، لأن هناك من شاهد صدام وهو يتجول في الأعظمية وثم يؤدي الصلاة في جامع أبي حنيفة في اليوم العاشر ليهرب من بغداد بعدها مباشرةً. العاشر من نيسان هو أيضاً اليوم الذي قُتِلَ فيه السيد مجيد.

رافقني تطابق هاتين الحادثتين، المقتل والتحرير، لعشر سنوات. لا علم لي بما سأفعل بهما. لكنني كنت مُدرِكاً بأنهما يجب أن يكونا محور أي شيء أكتبه عن التدهور



المرعب الذي تلى ذلك اليوم. ولكن كيف أصوّر ضخامة ذلك التزامن بين الحدثين؟

الحل الأدبي لتوحيد التحرير مع القتل تجسد في الرواية من خلال شخصية صدام حسين. فهو الماضي والإرث الثقيل الذي لا يمكن تجاهله بمجرد إعدامه على أيدٍ عراقية (للعلم، الولايات المتحدة لم تكن تؤيد الشنق في ذلك اليوم). حل شر جديد بلمحة البصر محل الشر القديم ليصبح أتعس من الأول آخذاً خلال أقل من ثلاث سنوات شكل الحرب الأهلية، وبراكين الغضب مستمرة في الانفجار ولم تهدأ بعد.

لقد كان صدام حسين يفهم القوانين غير المدوَّنة عن كيفية الحكم في العراق التي استوعِبَت بغير وعي واقتُبِست لتظهر كالغرائز على أيدي الذين تبعوه. في الجزء الأول من الكتاب، والذي يركز بصورة خاصة على عملية الشنق، لا يتكلم فيها صدام كثيراً. اخترتُ أن أقترب قدر الإمكان من حقيقة الأحداث في يوم الشنق. لم أشهد عملية الشنق بنفسي، ولكني عملت على إعادة بناء ما حدث تماماً من خلال مصادر متعددة. قصة «الحبل»، على سبيل المثال، اقتبستها من أحد تلك المصادر، شاب مساعد في مكتب رئيس الوزراء الذي حضر الإعدام والذي فقد قريباً له على يد الطاغية. الهتافات وفتح باب المقصلة تحت قدمي الطاغية



قبل أن ينهي شهادته قد تم تصويرها على هاتف نقال لمسؤول رفيع المستوى في الحكومة العراقية وقد تم تداول هذه المشاهد المخزية على شبكة الانترنيت. وكذلك صور لصدام وهو على المنصة ظهرت فيها شكل البكرة التي وصفتها في الرواية بما فيها الرجال الثلاثة الملثمون من حوله والتي نشرت في صحيفة «الأنباء» الكويتية يوم ٩ شباط ٢٠١١. مشهد جثة صدام وهي تعرض أمام مكتب رئيس الوزراء يوم زفاف ابنه برفقة هتافات الحشد ومن ثم بشاعة كشف الكفن من على وجهه، كلها عرضت على اليوتيوب («www.youtube.com/watch?v=IO037ky6TtI») من دون أدنى إحساس على وقعها على العالم الخارجي. راجع أيضاً مشهداً آخر للأحداثِ نفسها على القناة التلفزيونية العراقية المسماة «بلادي» والتي يملكها إبراهيم الجعفري.

صدام الآخر الذي يورد ذكره في الجزء الثالث من الكتاب، شخصية اختلقتها لتكون بنفس قسوة صدام الحقيقي ولكنها أذكى وأكثر ثقافة منه بكثير. لا يتبرأ هذا «الصدّام» الخيالي من جرائمه. بالعكس، يحلّلُ بهدوء وقناعة تامة ضرورتها في المجتمع العراقي بالأخص، ومن ثم يربط نوع حكمه بالتراث العربي الإسلامي بصورة عامة، والذي على أرضيته كما يقول، اشتق هذا «الصدّام» أفكاره وطبقها في



العراق. بطبيعة الحال هذا «الصدّام» الذي هو من نسج خيالي يحب الكلام وينطلق من معرفته العميقة لمصادر الفكر السياسي الحديث بالإضافة للتاريخ العربي الإسلامي، وبالأخص تلك التي تضفي مشروعية على القتل والتعذيب وتبرر العنف عامةً في السياسة. ويقوم صدام بكل هذا في الجزء الثالث من «**الفتنة**» بواسطة إلقائه محاضرة حول «حقيقة دكتاتوريتي» وضرورتها في مجتمعاتنا العربية الإسلامية، والدخول في حوار طويل مع أحد حراسه داخل غرفة الانتظار قبيل الشنق. هذا الحارس هو راوي القصة بأكملها.

وقد بنيت هذا المشهد (غير الواقعي بطبيعة الحال) على غرار الفصل المعروف باسم «المحقق الكبير» في رواية دوستويفسكي الشهيرة، «**الإخوة كارامازوف**». ثم هناك رواية أخرى استعنتُ بها تستغل الشكل الأدبي نفسه للكاتب جورج ستاينر، الناقد الأدبي السويسري الشهير، وعنوانه، «**الحمل إلى سان كريستوبال لأودولف هتلر**». في نهاية هذه الرواية يلقي القائد النازي هتلر خطاباً على سجانيه الذين «حملوه» من مكان اختبائه بعد الحرب العالمية الثانية إلى المكان الذي سيُحاكم فيه لجرائمه ضد الإنسانية. في خطابه الخيالي يورط هتلر كامل الحضارة الغربية، بكل تاريخها من أقدم الأزمنة، في ظهوره على حلبة السياسة العالمية، ويعلل أفكاره



العنصرية واللاسامية، بالضبط كما جعلتُ صدام يفعل بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية.

ما المقصود هنا؟ نعم صدام الرواية شخصية خيالية. ولكنه ما زال وسيبقى شخصية متأصلة بنا، نحن العراقيين، ومتأصلة بنا كعرب وكمسلمين، وهذه الهويات الثلاث (العراقية والعربية والإسلامية)، كصدام نفسه، موجودة ومتجذرة في حياتنا رغم موته وفي مخيلتنا إن كنا نؤمن بها أم لا. الذي أحاول التوصل إليه أن علينا أن نتقبل مسؤولية ظهور صدام بيننا كقائد عراقي وعربي، بل وحتى إسلامي (كل الأدلة والوثائق تشير إلى أن صدام حقاً آمن بـ«الحملة الإيمانية» التي بدأها في مطلع التسعينيات). لذلك صدام إن شئنا أو أبينا هو «منَّا وبِينَه»، كما يقول عزيز علي في أغنيته الشهيرة «دكتور».

وأخيراً، كما أن هذا القائد العربي الإسلامي لم ينزل من المريخ، الشيء نفسه ينطبق على عصابة الثلاثة عشر الذين لم يفهموا أو يستوعبوا الثقافة السياسية المتحضرة أثناء وجودهم في المنفى. وإنما في الرواية بقي هؤلاء بأفكارهم وأساليب تعاملهم مع العراقيين نسخة من صدام، يكرهونه ولكن برغم أنفسهم يشبهونه ويقلدونه. هم أيضاً في نهاية المطاف



ينطلقون من الأرضية نفسها والقيم والمعاني التي اقترَنَتْ باسم صدام في الثلاثين سنة التي سبقت مجيئهم للحكم.



١٠

يخجلني أن أكون من بين من دعم فكرة «اجتثاث البعث» في العراق قبل الحرب، بل وحتى نظّرْتُ لها. (ولكن تنظيري اختلف تماماً مع ما طُبّق بعد ٢٠٠٣، ورفضتُ بالكامل استعمال مصطلح «اجتثاث»). ما حدث في الحقيقة بعد ٢٠٠٣ كان اجتثاث السُنّة، أو تصفية حسابات مع البعثيين، وليس شيء آخر. ويصح هذا القول عن لجنة النزاهة أيضاً، التي ربما كانت أكثر لجنة فاسدة في دولة ما بعد ٢٠٠٣. لقد جاهدت النخبة الشيعية في إنجاح تلك المؤسسات إدارياً وتطبيقياً برغم فشلها في كل شيء آخر كتوفير الكهرباء أو إعادة إعمار بغداد أو تحسين البنية التحتية أو توسيع وتطوير إنتاج النفط ومصافي النفط. دور الأمريكيين كان طفيفاً في عملية «اجتثاث البعث» لا يتعدى إعطاء الصلاحية لتطبيقه.

تماشى «اجتثاث البعث» مع أشياء سيئة أخرى كالإدعاء أن الدولة كانت منذ نشأتها دولة سنية، نهج سياسي هدفه إضفاء



الشرعية على المشروع الطائفي الشيعي في العراق. وتلاها كثير من الأكاديميين والإعلاميين الغربيين الذين حذو حذوهم لسهولة تبرير ما كان يحدث في العراق. كتبوا ونظَّروا أن الأحقاد الطائفية متأصلة لدى العراقيين تاريخياً، ومكتوب علينا أن يكره الواحد الآخر. بينما في الحقيقة كان الحقد الطائفي بعد ٢٠٠٣ تكتيكاً سياسياً تم اختياره لأسوأ وأقبح الأسباب. مجموع هذا النوع من الاختيارات هي الفتنة التي على أساسها ترعرعت السياسة الجديدة لعصرنا: الطائفية.

من الضرورة أن نتساءل في هذا الظرف السياسي بالأخص، هل كانت الدولة العراقية التي خلقتها بريطانيا في ١٩٣٢ حقاً طائفية في تركيبتها السياسية؟ السؤال نفسه يمكن أن يُسأل عن أصول الجمهورية الأمريكية: هل كانت عنصرية في تركيبتها، بما أن التمييز العنصري في القارة الأمريكية ظاهرة عميقة تعود لقرون؟ في الحالتين يجب التفريق بين الدولة والمجتمع. من المؤكد، كانت الطائفية متأصلة في المجتمع العراقي كما كانت العنصرية متأصلة في المجتمع الأمريكي. ولكني مهتم في كلتا الحالتين في الدولة وليس المجتمع. السياسيون والأحزاب والقادة والمثقفون اختاروا بصورةٍ عامة نبذ العنصرية في الجمهورية الأمريكية (من أمثال لينكولن ومارتن لوثر كينج وكندي وجونسن إلى أن نصل إلى باراك أوباما اليوم).



ولكن في عراق بعد ٢٠٠٣ انعكست الحالة، فلم تنبذ الطبقة السياسية الشيعية الجديدة الفكر الطائفي، بل على العكس شجعته وأقامت مؤسسات الدولة عليه. تغيرت طبيعة الدولة العراقية بعد ٢٠٠٣ لتصبح دولة طائفية بكامل معنى هذه الكلمة اليوم (ما تبقى من الدولة على أيةِ حال). لا الطائفية ولا العنصرية يمكن القضاء عليها بسهولة بعد أن تتجذر في البنية السياسية. ولكن على الأقل في أمريكا تم التصدي للعنصرية على الصعيد السياسي (على الرغم من ظهورها بين الحين والآخر كما حدث في بولتيمور وفركيسون في ٢٠١٤). ولكن في العراق، دُفِعَ بالطائفية من الأعلى إلى الأسفل، من الطبقة السياسية الحاكمة إلى القاعدة الثقافية والاجتماعية الشعبية، حتى أصبحت بداية ونهاية كل شيء. لذلك أصبح من الصعب جداً إزالتها اليوم. وبالطبع، باقي الشرق الأوسط يحذو الآن حذوهم، مضيفين إلى ما ساهمت في خلقه النخبة الشيعية العراقية من انهيار حضاري وخلقي شامل في كل أرجاء العالمين العربي والإسلامي.

مقتل السيد مجيد، والتغطية عليه، أظهر منذ البداية أن لا أحد في البلد كان له البصيرة والروح العالية ليقف أمام حدث تاريخي كبير مثل سقوط طاغية وحزبه اللذين حكما العراق لأكثر من ثلاثين سنة. ربما كان مقتَل السيد مجيد في اليوم



نفسه الذي انهارت فيه الدولة البعثية محض مصادفة فريدة من نوعها. ولكن لا مكان للصدفة في عملية التغطية التي تبعتها، والتي أطلقتُ عليها كلمة الفتنة. في النهاية الثمن الذي يدفعه المجتمع ككُل للطائفية (كما في العنصرية) هو أن إنسانية الطائفي (أو العنصري) تُنتهك عندما تُنتهك إنسانية ضحيته، وبذلك ينحطُّ المجتمع ككل.

قد تنفع سرد حكاية هنا. في التسعينيات دخلت في نقاش مع صديقي برهم صالح (نائب سابق لرئاسة الجمهورية العراقية) في ما يتعلق في احتمالية انفصال الأكراد في عراق ما بعد صدام. دار الجدل مع قول برهم عن أن العراق دولة مصطنعة، وكم هي منطقية فكرة الدولة الكردية بحد ذاتها. اتفقت معه، ولكنني كنت أدافع عن فكرة العراق بالقول أن انفصال الأكراد قد يكلّف الشعب الكردي أكثر مما لو بقوا ضمن الدولة الفيديرالية الجديدة (وهذا شيء ربما لم يعد صحيحاً نتيجة سيادة الفكر الطائفي وتفكك البلد). من سخرية القدر أن الأكراد هم الذين ظلّوا يمدّون الحكومات العراقية المتعاقبة بوزراء مسؤولين، والقيادة العربية الشيعية هي التي نبذت فكرة العراق، لتولِد «داعش».



١١

يؤلمني شخصياً أن يكون السيد مجيد أول ضحية للطائفية في العراق. في قصته ربما هناك عبرة ممكن لمسها من قصة وردت في الكتب السماوية، وهي قصة هابيل وقابيل.

القصة بمثابة قصة تأسيسية، تهتم في رمزيتها ببدايات الأشياء. في كتاب الخلق في التوراة، على سبيل المثال، البدايات تخص الكون، الكرة الأرضية، سقوط آدم على يد حواء، وبداية الجنس البشري على الكرة الأرضية. ولكن على الكرة الأرضية قيل لنا أيضاً في التاريخ الخرافي لأصولنا أن آدم وحواء خلَّفا ولدين، قابيل وهابيل، أحدهما قتل الآخر غيرةً منه على حب أبيه. نجد أنفسنا إذن أمام قصة أول جريمة قتل في أساطير تكوين الجنس البشري. المغزى من هذه الجريمة الأولى أنها أطلقت العنان للعنف الذي سيعمّ التاريخ البشزي كله من بعدهم.

ربما رمزيتها للعراق ما بعد ٢٠٠٣ بديهية حد السذاجة.



ولكن تبقى مهمة على الرغم من بساطتها. عراق ما بعد سقوط الطاغية، ابتداءً من يوم سقوطه، أعاد زرع بذور العنف والقسوة والأحقاد لتتصاعد وتستمر على أيدينا، نحن أحفادهم، أحفاد القاتل قابيل، محاولين دوماً أن نُثبِت هويتنا على حساب الآخر مهما كان ضعيفاً أو ليس على استعداد لرد العنف بالعنف. أغلقنا كل الأبواب الأخرى للتجاوب مع العالم الجديد الذي انفتح أمامنا لنختار العنف والقتل الذي بدأ بين الإخوان، ومن ثم عمّ على الجميع. والآن الأسباب والحجج قد تغيرت، وأساليب القتل بالتأكيد تحسنت كثيراً، ولكن بقي القتل هو كل ما نعرفه، ولم ينتهِ إلى حد يومنا هذا.

أنا لستُ متديناً مثل السيد مجيد. كنت أعرفه، كما عرفه الآخرون. كان رجلاً اعتيادياً، يقف على رأس مئآت من الآلاف من العراقيين الاعتياديين والطيبين مثله والذين قتلوا على أيدٍ عراقيةٍ أخرى بسبب الحقد والانتقام. ولكن السيد مجيد كان أيضاً ابناً لآية الله العظمى السيد ابو القاسم الخوئي، وبهذا فهو ليس رجلاً اعتيادياً. مقتله، والأهم التغطية عليه، كان المفروض أن يتحول إلى جرس إنذار لكل المجتمع الذي ولدت أنا بينه، ولكنه لم يُحرِك أحدٌ أصلاً، لا أحد يتذكر من هو السيد مجيد وأنا أكتب هذه الأسطر... ما معنى هذا؟



أقول بكل بساطة معناه أنه عندما قُتِل السيد مجيد، مات في داخلنا شيء معه. ربما كان ذلك الشيء ميتاً قبل أن يُقتل. لا أدري. يتساءل راوي هذه القصة العراقية البحتة: «مَنْ هذا الرجل؟» ثم يجيب نفسه قائلاً: «إنه كلنا. إنه أنا.»

يعني هو عمّار، هو مصطفى، هو ابن عمي سعد، الذي قُتل في سيارته عندما أراد جهاديون سُنّة طرده من محلته المختلطة. هم السُنّة العرب الذين طُرِدوا من بيوتهم في بغداد وديالى، أو أولئك الذين ثُقِبت جماجمهم بيد أناس من أمثال حيدر في الحرب الأهلية الأولى لعام ٢٠٠٥ و٢٠٠٦. هم المسيحيون العراقيون الذين طُردوا من بيوتهم التي عاشوا فيها لقرون قبل أن يكون هناك شيء اسمه الإسلام. هن صبيات من الإيزيدات اللاتي باعتهن «داعش» كسبايا.

نعم، السيد مجيد هو جميعنا، هو كل عراقي سمح لخيانة تراثه ومسح هويته على يد رجال - ودائماً كانوا رجالاً - إدّعوا بأنهم يمثلون الشيعة عندما استبدلوا فكرة العراق بذلك الوهم المُدَمِر: «دولة الشيعة».






مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

هذا الكتاب

مَن اعتبر نفسه «مظلوماً»، وأن مظلوميته أزلية لتصبح جزءاً لا يتجزأ من هويته، يفتقد القابلية على التصرف في الحياة العامة دون الرضوخ إلى الطائفية، وهذه الطائفية كنمط حكم تبنى دائماً وتشتق شرعيتها على أرضية المظلومية المزعومة. هنا تنغلق أبواب الحوار والتعاطي والتسامح، لتنفتح أبواب العنف والدمار.

الفتنة أهم وصف لمجموع ما حلّ بالمجتمع العراقي بعد سقوط صدام في ٢٠٠٣، حيث أصبحت الدولة العراقية، أو ما تبقّى منها اليوم، طائفية بالكامل وشبه تابعة لجارتها إيران. حربٌ أهلية وانهيار تام في العلاقات السنية ـ الشيعية لم يكن مكتوباً علينا نحن العراقيين كنتيجة حتمية؛ قادة عراقيون صنعوا الفتنة التي ولدت الفشل. كان فشلاً ذاتياً، آتٍ من الداخل وليس من الخارج، ولا يمكن الاختباء وراء وحشية الطاغية قبل ٢٠٠٣ أو كارثة الاحتلال بعدها.



رسم الغلاف: اسماعيل فتاح الترك

ISBN 978-9933-35-217-2
9 789933 352172

